

## الباب الأول

# طبي ونب أبي تمام فيها

### ١ - اشتقاق الأسم

يقول ابن دريد في كتابه الجهرة في اللغة، في «طو» : «قال الخليل رحمه الله : اشتقاق طبي من الطاء وواو وهمزة ، أو ياء وهمزة ، كأن إحدى الياءين في طبي محسولة عنده عن الواو» . وفي نسخة منها أشار إليها الناشر في الهامش بحرف (هـ) ما نصه : «قال الخليل : اشتقاق طبي من طاء وهمزة وياء الخ . فقلبت الواو ياء ، وأدغمت في الياء الياء ، مثل طويت الثوب طيا» . وفي نسخة بانكيور من الجهرة في «ط ي ي» : «من لم يهز طيئا قال هكذا : طي كما ترى» .

فالكلمة عند الخليل مشتقة من طوأ أو من طيا ، في النسخة الأولى ؛ ومن طأى أو من طاو ، في النسخة الثانية ؛ ومن ط ي ي في النسخة الثالثة .

وفي العبارة إجمال ، ولكن الذي يفهم من قوله «فقلبت الواو ياء... الخ» ، هو أن طبي أصلها طيوئ أو طويئ ، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمتا . وفي القاموس : الطاءة كالطامة : الإبعاد في المرعى ، ومنه طبي أبو قبيلة ، أو من طاء يطوء إذا ذهب وجاء ، والنسبة طائي ، والقياس كطيبي ، حذفوا الياء الثانية ، فبقى طبيئ ، فقلبوا الياء الساكنة ألفا . وطاء في الأرض يطاء : ذهب ، أو أبعده في ذهابه .

وهي عند ابن الكلابي ، كما ينقلها عنه صاحب الجهرة ، وكما يرى صاحب الأغاني وياقوت ، مشتقة من طوي ، بمعنى بنى البئر بالمجارة ، فيقولون ، على اختلاف في العبارة ، واتفاق في الدلالة : إنه إنما سمي طيئا لطيبه المناهل ؛ ولكن ابن دريد - على حدّ تعبيره - لا يعرف هذا الوجه من الاشتقاق .

والأفعال الثلاثة طاء يطاء ، وطاء يطوء ، وطوي يطوي ، تدور كلها حول معنى أصلي واحد ، هو الحركة .

(١) انظر آب الجهرة لابن دريد ، طبعة حيدرآباد بالهند سنة ١٣٤٤ - ١٣٤٥ هـ .

(١)  
وفي دائرة المعارف الإسلامية أن « طَيَّابِي » معناها العرب ، والمسلمون عامة . فأما الشطر الأخير من العبارة ، فخطأ شاع وظل إلى قريب ، فقد كان المسلمون يسمون العرب ، ومتى أطلق أحد الاسمين ، فهم منه المعنى المراد بالآخر ؛ فلا غرابة في أن يطلق السُريانيون اسم العرب على المسلمين جميعاً ، والذي يهمننا هنا هو إطلاق هذا اللفظ ، الذي يقرب من لفظة « طائي » على العرب جميعاً .  
فإما أن يكون ذلك آتى من ملاصقة طبيّ للسريان حيث كانوا يقيمون ؛ فقد كانت طبيّ تقيم على أطراف العراق ؛ وإن كان هذا يضعفه أن الخميين والغسانيين كانوا ألصق بالسريان منذ زمن قديم . وإما أن يكون اسم طبيّ أطلق أولاً على القبيلة ، ثم غلب على العرب عند السريان ، لشدة الصلة ، ولتين معنى العروبة فيهم .

وهناك شيء آخر تجب ملاحظته ، ذلك هو أن طاء يطوء ، وطاء يطاء ، وطوى يطوى ، تشترك جميعاً في المعنى الأصلي مع عرب وعبر ، وهما أصل كلمة العرب .

ففي القاموس : أن العرب هو النشاط ، ويمتزك ؛ وعرب كفرح : نشط ؛ وعرب النهر : غمر ؛ والعربة محرّكة : النهر الشديد الجرى .  
فالمعاني قائمة كلها حول الحركة ، وهو ما يتبين تماماً في حياة العرب ، وما يوجد في أصول كلمة طبيّ .

فلم تسم العرب عرباً بالصدفة ، بل لأن حياتهم ونهجهم في العيش ، كان يدعوهم في لغتهم إلى تسمية أنفسهم بالعرب ، مشتقة من عرب بمعنى الحركة ، ويدعو غيرهم إلى تسميتهم كذلك . فطائي وعربي لهما مؤدّى واحد .

وليس بمعنى ذلك أن طيئاً يجب ألا يعتبر نسباً ما دام معنى عاماً ؛ فإن الاشتراك في المعنى العام لا يخرج التسمية الخاصة عن مدلولها الضيق ، الذي تنويسي فيه الأصل ، كما هو ظاهر في كل أسماء الأعلام المنقولة . وسنرى فيما بعد أن حياة طبيّ كانت حركة دائمة ، ونشاطاً لا ينقطع .

## ٢ - أصل طبيّ

لا خلاف بين النسابين في إرجاع طبيّ إلى اليمن ، فهي عندهم جميعاً تنتهي إلى قحطان ، ولكن سلسلة النسب تضطرب ، فتتقص حيناً وتزيد حيناً ؛ والغريب أن الزيادة ليست في الآباء البعيدين ، وإنما هي في القرييين شيئاً .

(1) 'En syriaque Taiyayé désigne les arabes et les musulmans en général.'

والسلسلة الغالبة هي : طبي<sup>(١)</sup> ، واسمه جلهمة ، بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد ابن كهلان . وعند هذا يقف ياقوت<sup>(٢)</sup> ، ويتعداه ابن حزم<sup>(٣)</sup> إلى آخره سباً ، ثم يحيى المقرئ<sup>(٤)</sup> فيسير سيرة السابقين في سرد النسب ، إلا أنه يسقط زيदा فيما بين عريب وكهلان ، ويصل السلسلة بقحطان ، فيقول : كهلان بن سبأ بن يشجب بن قحطان . أما في سلسلتى الأغاني والعقد الفريد ، فاضطراب يقتضى حذف قبائل كاملة من عمود النسب الطائي .

فالرواية في الأغاني أن جلهمة هو ابن أدد بن مذحج بن زيد بن يشجب بن عريب بن مالك ابن كهلان<sup>(٥)</sup> . ففيها مالك بدل زيد وفيها أن مذحجا جد طبي<sup>(٦)</sup> . أما العقد فيرى أن طيا أخو مذحج وينقل عن ابن الكلبي أنه قال إنه هو مذحج أيضا ، ثم يسير في السلسلة حتى كهلان ، كما رأينا في ابن حزم .

أما ابن دريد في كتابه « الاشتقاق » فيجعل جلهمة ( وهو طبي<sup>(٧)</sup> ) ومالكا والأشعر إخوة ، ويجعلهم أبناء زيد بن كهلان ، وإكناه يعود في الكلام على مذحج فيقول : إن مذحجا ولد مالك ابن أدد ، ويظهر أنه أسقط في العبارة الأولى أدد .

وعندى أن عبارة الأغاني والعقد الفريد ليستا شيئا بجانب إجماع النساين على جعل مذحج قبيلة قائما بذاته ، وقرب إجماعهم على جعل مذحج أحما طبي<sup>(٨)</sup> . وإنما أردت بهذا التطويل أن أعرض صورة كاملة لنسب طبي<sup>(٩)</sup> في أمانة . وعندى أن هذا الاضطراب يرجع أحيانا إلى تسمى الواحد باسمين ، كما يذكر صاحب الاشتقاق أن سبأ كان يسمى عبد شمس أيضا . فقد يوضع سبأ في رواية ، وعبد شمس في أخرى ، ثم يحيى ، ثالث متأخر فيخلط بين الاثنين ، جاعلها أبوين ... ولا أرى أن شيئا هنا يقع علينا من هذا الاضطراب ، فإن طينا عند الجميع ترجع إلى اليمن ، وأي ذلك القبيل من العرب الضارب في الأرض ، يقطعها من الجنوب إلى الشمال ، والمنتشر في أقطار جزيرة العرب انتشارا يدعو إلى الدهشة ، والحاكم على أهم أقطارها ، وأغنى بقاعها ، والذي امتاز بأن كان منه ملوكها في أيام مدينتها الأولى ، قبل الإسلام ، والمعدود أصيلا في عربيته .

(١) معجم البلدان مادة أجا . (٢) ابن حزم : جمهرة الأنساب ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٩ ش .

(٣) المقرئ : كتاب البيان والإعراب ، عما بأرض مصر من الأعراب ، طبعة مطبعة المعارف سنة ١٩١٦ م .

(٤) ج ١٦ ص ٤٦ طبعة السامى . (٥) ابن دريد ، كتاب الاشتقاق ص ٢١٨

(٦) المصدر السابق ص ٢٣٧

## ٣ - موطن طبي

كانت طبي<sup>(١)</sup> تنزل « الجوف » من أرض اليمن ، وهي اليوم محلة همدان ومراد ، وكان سيدهم يومئذ أسامة بن لؤي بن الغوث بن طبي ، وكان الوادي مَسْبُعة ، وهم قليل عددهم . فجعل يئتابهم بعير في زمن الحريف ، يضرب في إبلهم ولا يدرون أين يذهب ، إلا أنهم لا يرونه إلى قابل . وكانت الأزبد قد خرجت من اليمن أيام سيل العرم ، فاستوحشت طبي<sup>(٢)</sup> لذلك ، وقالوا : قد ظعن إخواننا ، وساروا إلى الأرياف . فلما هموا بالظعن قالوا للأسامة : إن هذا البعير الذي يأتينا إنما يأتينا من بلد ريف وخصب ، وأنا نرى في بعره النوى ؛ فلو أننا نتعهدده عند انصرافه ، فشخصنا معه ، لعلنا نصيب مكانا خيرا من مكاننا . فلما انصرف تبعه أسامة بن لؤي بن الغوث ، وحية بن الحارث بن فطرة ابن طبي ، حتى أدخلهما باب أجا ، فوقفا من الحصب والخير على ما أعجبهما ... وارتحلت طبي<sup>(٣)</sup> بجابتها إلى الجبلين ، وجعل أسامة بن لؤي يقول :

اجعل ظريبا كحبيب يُدعى لكل قوم مُصْبِحٌ ومُمسى

وظريب : اسم الموضوع الذي كانوا يتزلون فيه قبل الجبلين . قال : فهجمت طبي<sup>(٤)</sup> على النخل بالشعاب على موايش كثيرة ، وإذا هم برجل في شعب من تلك الشعاب ، وهو الأسود بن غفار ، ( وهو البقية الباقية من جديس ، بعد أن فتك بهم حسان تبع في اليمامة ، والحكاية مذكورة في الأغاني<sup>(٥)</sup> ) ، فهالهم ما رأوا من عظم خلقه وتخوفوه ، فزلوا ناحية من الأرض فسبروها ، فلم يروا بها أحدا غيره . ثم ندب أسامة بن لؤي ابنه الغوث لقتل الأسود ، فتغفله الغوث ، ثم رماه بسهم فقتله ، وأقامت طبي<sup>(٦)</sup> بين الجبلين .

هذه رواية الأغاني مع زيادات قليلة لا تمس جوهر الموضوع .

وفي رواية أخرى لياقوت : أن طبيئا نفسه هو الذي انتقل عن موطنه ، فيما بين اليمن وتهامة ، سائرا بعد سيل العرم مع أعمامه ، فوقعت بينه وبينهم ملاحاة ، ففارقهم طبي<sup>(٧)</sup> ، وسار نحو الحجاز بأهله وماله ، يتبع مواقع القطر ... وأوغل طبي<sup>(٨)</sup> بأرض الحجاز ، وكان له بعير يشرد في كل سنة عن إبله ، ويفيب ثلاثة أشهر ، ثم يعود إليه وقد عيل وسمن ، فقال لابنه عمرو : تفقد يا بني هذا الجمل ... الخ ،

(١) ياقوت في مادة أجا ، وفي الأغاني ج ١٠ ص ٤٧ ولكنه يسميها الجرف .

(٢) ج ١٠ ص ٤٦ وما بعدها .

حتى إذا نزلت طبيّ الجبلين، وجدوا فيهما شيخا عظيما جسيما، مديد القامة على خلق العاديين، ومعه امرأة على خلقته، يقال لها سلمى، وهي امرأته، فأقام طبيّ بإبله وولده بالجبلين، فلم يلبث الشيخ والمعجوز إلا قليلا حتى هلكا، وخلص المكان لطبيّ، فولده به الى هذه الغاية. قالوا: وسألت المعجوز طبيئا ممن هو؟ فقال طبيّ:

إِنَّا مِنَ الْقَوْمِ الْيَمَانِيَّةِ      إِنَّ كُنْتَ عَنْ ذَلِكَ تَسَالِينَا      الخ

ويقولون: إنها أول شعرقيل في طبيّ، ويقولون: إن لغة طبيّ هي لغة هذا الشيخ الصحراوي وامرأته.

وهناك رواية ثالثة تتفق مع هذه في أن طبيئا كان سيد أهله إلى هذه البقعة، ونازلها بهم. وتتفق مع الأولى في أنه وجد الأسود بن غفار فيها، فقامت بينه وبينهم مشادة، أدت بهم إلى تحديد موعد للاقتال؛ فلما جاء الموعد انتدب طبيّ ابنه جندب بن خارجة بن فطرة بن طبيّ، وأمه جديلة من حمير، لقتال الأسود، فامتنع. فقال طبيّ لعمر بن العوث بن طبيّ: فعليك يا عمرو الرجل نقاتله، فامتنع وقال شعرا منه:

وَإِذَا تَكُونُ كَرِيهَةً أُدْعَى لَهَا      وَإِذَا يُحَاسِ الْحَيْسُ يُدْعَى جَنْدَبٌ <sup>(٢)</sup>

فقال طبيّ: يا بني إنها أكرم دار في العرب. فقال عمرو: لن أفعل إلا على شرط ألا يكون لبني جديلة في الجبلين نصيب. فقال طبيّ: لك شرطك... الخ.

وتفاصيل الرواية — ولم أذكرها هنا — تلتقى اعتراضا ونقدا قاسيا ممن يدعى عبدة الله الفقير إليه. وبظني أن هذه الرواية الأخيرة إنما خلقت أخيرا، لتبرير طرد جديلة من الجبلين، حين طردت منهما في حرب الفساد، كما سيحىء ذلك بعد.

أما ابن خلدون <sup>(٣)</sup> — فكما عهدناه — لا يعبا بهذه القصص التي تشبه الأساطير أكثر مما تشبه الحقائق، فهو يقول: «وأما بنو طبيّ بن أدد فكانوا باليمن، وخرجوا منه على أثر الأزد إلى الحجاز، ونزلوا فيد وسميراء في جوار بني أسد، ثم غلبوهم على أجأ وسامى، وهما جبلان من بلادهم، فاستقرّوا بهما، واقتروا لأول الإسلام في الفتوحات».

وهذا الأخير أشبه بالحق والتاريخ، وإن ضاع علينا فيه تحديد تاريخ نزول طبيّ تحديدا تقرّيبا بالجبلين. وقد عز هذا على دى برسفال صاحب «تاريخ العرب قبل الإسلام»، وفي أثناء

(١) يلاحظ أن هنا بين جندب وطبيّ ثلاثة آباء. (٢) ويقولون إنه أول شعر بعد شعر طبيّ السابق فيهم.

زمن محمد « فأبى إلا أن يستعين بالروایتين معا . فاستخدم في تحديد زمن هجرة طبي إلى الجبلين ، الرواية التي تقول إنهم هاجروا وعلى رأسهم أسامة بن لؤي بن الغوث بن طبي ، وصرف النظر عن الروایتين الأخرين وغيرهما .

فقال إن أسامة<sup>(١)</sup> هذا ، حفيد الغوث ، يعادل في السن حفيدا آخر للغوث ، هو نهبان ، الحد الحادي عشر من أجداد زيد الخيل . وعلى ذلك يكون قد مر على طبي في الجبلين أيام إسلام زيد الخيل أحد عشر جيلا ، فولد نهبان كان على حسابه ( وأسامة معه ) حول سنة ٢٠٧ م ، وكان أسامة رجلا إذ ذاك ، فيكون تاريخ نزولهم الجبلين فيما بين سنتي ٢٤٥ و ٢٥٠ م . فكانه جعل للجبل الواحد أربعة وعشرين عاما ، وهو يتبع سلسلة أخرى تقوده إلى النتيجة عينها عن طريق حاتم الطائي . وهذا جائز لو أن هذه الرواية مقطوع بصحتها ، ولكما كما ترى لانستطيع الجزم بصحة إحدى هذه الروايات . وإن ما حولها من الأساطير ليعت على الشك في صحتها جميعا ، وخصوصا إذا جمعت هذه الروايات إلى رواية ابن خلدون السابقة .

وخلاصة المفهوم من هذه الروايات جميعا : أن طينا يمنية ، نزلت بالجبلين قبل الإسلام بزمن ليس بالطويل جدًا ، وغلبت عليهما أسدا أو غير أسد ، وأقامت فيهما واستقرت ، وحمتهما حماية تركت لها ما يكتهما حقا مقظرا ، دعا الناس جميعا في تلك الأزمنة السحيقة إلى تسميتها جبلي طبي .

#### ٤ - جبال طبي

يقول ياقوت في مادة أجا : قال الزمخشري : أجا وسلمى : جبلان عن يسار سميراء ، وقد رأيتهما ، شاهقان ... وقال أبو عبيد السكوني : أجا أحد جبلي طبي ، وهو غربي قيد ، وبينهما مسير ليلتين ، وفيه قرى كثيرة . قال : ومنازل طبي في الجبلين عشر ليال ، من دون قيد إلى أقصى أجا إلى القريبات من ناحية الشام ، وبين المدينة والجبلين على غير الجادة ثلاث مراحل ... وبين الجبلين وفدك ليلة ، وبينهما وبين خيبر خمس ليال .

ويقول في مادة العوجاء : ... وهي هضبة تناوح جبلي طبي ، أي أجا وسلمى . وعند الرواة لهذين الجبلين وتلك الهضبة قصة أيضا ، فأجا وسلمى عاشقان ، كانت تجمع بينهما حاضنة سلمى :

(١) ج ١ ص ١٠٤ (٢) هناك رواية أخرى في مروج الذهب للسعودي فيها أن الأسود بن غفار هرب ونزل بدار طبي ، فأجاره من حسان تبس وغيره من غير أن يعرفه ، فيذكر أن نسله اليوم في طبي مذكور ( ج ١ ص ٢١٨ - ط عبد الرحمن ) .

العوجاء ؛ فعلم إخوة سلمى ، فتبعوا العاشقين حتى قتلوهما ، كل في جبل سُمي بعد باسمه ، وقُتِلت الحاضنة فوق الهضبة ، فسميت باسمها كذلك .

وهذه الجبال حصينة ، منعت أهلها ، ومنعها أهلها ، فبقيت لهم على رغم ما توالى عليهم من غارات أعدائهم ؛ بلاد واسعة كثيرة المياه والنخل والريف ... وهما أرض ذات شأن ... والمكان واسع ، والشجر يانع ، والماء ظاهر ، والكلأ غامر ... والتمر قد غطى كرائف النخل<sup>(١)</sup> .

وفي سلمى يقول : هو جبل وعمر ، به وادٍ يقال له رَكٌّ : به نخل وآبار مطوية بالصخر ، طيبة الماء ، والنخل عصب ، والأرض رمل ، بحافتيه جبلان أحمران ، يقال لهما حَمَيَّان والغداة . وبأعلاه برقة يقال لها السراء ...

وقال السكوني : سلمى جبل يقرب من فيد ، عن يمين القاصد مكة ، وهو لنهبان ، لن يدخله أحد عليها ، وليس به قري ، إنما به مياه وآبار وقُلب عليها نخل وشجرتان .

وفي هذه الجبال يقول جابر بن رألان السنيسى ، من شعراء الحماسة :

ونحن غلبنا بالجبال وعزها ونحن ورثنا غيثاً وبدينا

وفي ذلك قول حسان بن حنظلة الطائي :

غَضِبْتُ عَلَىٰ أَنْ اتَّصَلْتَ بِطَبِيٍّ وَأَنَا امْرُؤٌ مِنَ طَبِيٍّ الْأَجْبَالِ

وفيهما يقول الطَّرمَاح بن عَدِيٍّ للمسيين وهو سائر إلى العراق سنة ٦١ هـ ، محاولاً منعه عن السير إلى العراق : « ... فَإِنِ أَرَدْتَ أَنْ تَنْزَلَ بِلْدَا يَمْنَعُكَ اللَّهُ بِهِ ، حَتَّى تَرَى رَأْيِكَ ، وَيَسْتَبِينَ لَكَ مَا أَنْتَ صَانِعٌ ، فَسِرْ حَتَّى أَنْزَلَكَ جِبَلْنَا أَجَا ، فَهُوَ وَاللَّهُ جِبَلٌ امْتَنَعْنَا بِهِ مِنْ مَلُوكِ غَسَّانٍ وَحِمِيرٍ ، وَالنَّمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ ، وَمِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَبْيَضِ ، وَاللَّهُ مَا إِنْ دَخَلَ عَلَيْنَا ذَلْ قَطُّ<sup>(٢)</sup> » . وعن لسان طبيٍّ : إنها أكرم دار في العرب<sup>(٣)</sup> ، فهي مكان ممتنع خصب ، به الماء والخير .

### ٥ - نزول طبيٍّ بالجبلين

ولما خلاص الجبلان لطبيٍّ نزلها بنو الغوث ، ونزلت جديلة السهل<sup>(٤)</sup> ، وجديلة هم أبناء جندب ، المذكور في القصة السابقة ؛ فسمى أولئك الجبلين ، وهؤلاء السهلين .

ثم مضى زمن كثروا فيه ، واضطروا إلى الإغارة على جيرانهم من أسد ، حتى اضطروهم إلى نجد ، ثم أغاروا عليهم بعدها أيضاً ، فاضطروهم إلى أن يتقهقروا مسافة ، حتى يصلوا إلى حدود الحجاز<sup>(٥)</sup> .

(١) ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ١١٩ (٢) ابن الأثير حوادث سنة ٦١ هـ (٣) معجم البلدان

ج ١ ص ١١٨ (٤) معجم البلدان ج ١ ص ١١٩ (٥) تاريخ العرب لدى برسيغال ج ١ ص ١٩٢

وفي وصف ذلك التوسع والكثرة يقول ابن خلدون نقلا عن ابن سعيد : ومنهم الآن ( زمن ابن سعيد ) في بلادهم أمم كثيرة ، مائتا السهل والجبل ، حجازا وشاما وعراقا<sup>(١)</sup> .

ويقول فيما بعد ذلك : وكانت الرياسة على طبي في الجاهلية لبني هني بن عمرو بن العوث بن طبي . ويقول ياقوت في الكلام عن فيد : منزل بطريق مكة ... في نصف طريق مكة من الكوفة ، عامرة إلى الآن ( زمنه ) ، يودع فيها الحاج أزوادهم ، وما ينقل من أمتعتهم عند أهلها ، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ، وهبوا لمن أودعها شيئا من ذلك . وهم مغوثة للحاج في مثل ذلك الموضع المنقطع . ومعيشة أهلها من ادخار العلوقة طول العام إلى أن يقدم الحاج ، فيبيعونه عليهم ... قال الزجاجي : سميت فيد بفيد بن حام ، وهو أول من نزلها ... وقال السكوني : فيد نصف طريق الحاج من الكوفة إلى مكة ، وهي أمثلاث ... وثالث لبني زهران من طبي .

فالبدة قديمة كما يرى في المنقول عن الزجاجي ، وهي إلى الشرق من أجا ، على مسير ليلتين ، « وبينها وبين الكوفة مائة وتسعة فراسخ<sup>(٢)</sup> » .

« ومنهم بنو لام بن ثعلبة ، منازلهم من المدينة إلى الجبلين ، وينزلون في أكثر أوقاتهم يثرب<sup>(٣)</sup> » . أى أن منازل هذا الحى من طبي تقع على خط القوافل الآتى من المدينة ، والقاطع لجزيرة العرب ، متجها شمالا بشرق إلى الكوفة ، مخترقا جبل طبي الجنوبي ، مازا خلال ذلك بنجيب وفيد .

ولا تخفى أهمية هذا الخط ، من حيث أنه طريق المتاجر اليمنية إلى العراق وعكس ذلك . وإلى الجنوب من هذا الخط الهام ، خط آخر يكاد يوازيه ، يخرج من مكة إلى الشمال الشرق ، منحرفا إلى الشمال انحرافا خفيفا ، يبلغ غايته في نجد ، حتى يكون فيها أقربه إلى جبل طبي ، ثم يميل خفيفا إلى الجنوب في اتجاهه إلى الشمال الشرق ، حتى يصل إلى البصرة .

وقد علمنا ما كان بين أسد وطبي في نجد ، واقتحام الثانية على الأولى نجدا ، واضطرارها إليها إلى حدود الحجاز . فكان هذا الطريق الهام أيضا كانت تهدده طبي إن لم تكن سيدته .

وهذان الطريقان هما الطريقان الوحيدان ، اللذان تتفرع عنهما الطرق الأخرى التجارية في الجزيرة العربية ، فعند المدينة يسير ، غير الطريق الآنف الذكر ، طريق آخر إلى الشمال ، لا يلبث أن يتفرع فرعين ، يتباعدان قليلا في اتجاه إلى الشمال الغربي : أحدهما يقف عند العقبة ، والآخر يسترسل إلى الشام . وليس من اليمن إلى العراق أو الشام طريق غير طريق مكة والمدينة هذا ،

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٤ . (٢) تقويم البلدان لأبي القداء ، ص ٩٧ . (٣) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٤ وما بعدها .

إلا أن تدور القافلة حول جزيرة العرب كلها، متجهة إلى الشرق، محترقة حضرموت ومهرة وعمان والبحرين، دائرة في اتجاه لا يمكن تجنبه حول صحراء الجزيرة الجنوبية الكبرى؛ وفي ذلك ما فيه من عسرو زمن وكلفة .

قد يلقي هذا في الذهن فكرة لا بأس بها عن أهمية موقع طبي ومنازلها في الجزيرة، ويرينا من وراء ذلك مقدار الاهتمام الذي يمكن أن يشعر به الفرس في العراق، والروم في الشام، بطبي، لما كانوا يرونه من غلبتها على هذه الطرق. ولاشك أن شيئا من الاطلاع على تاريخ الفرس والرومان، وارتباطهما بجزيرة العرب، ومحاولة كل منهما السيادة فيها بقدر الإمكان، وما كان بينهما من منافسة عليها، حتى أسست كل منهما دولة عربية تتاحمها على حدودها. لا شك أن هذا لا يدع الإنسان يقف عند حدّ الظن، أن كل دولة إنما كانت تبغى حماية حدودها من غارات العرب وكفى، وإنما كانت تبغى فائدة أخرى، فتاجرا الهند واليمن الغنيتين، لا يمكن أن تصل إلى الشام بسهولة مثل وصولها بجزيرة العرب .

فاهتمام الفرس والروم بجزيرة العرب، إنما يرجع في أساسه إلى هذه الظروف الاقتصادية، ومن يُمن بهذا فلا بد أن يعنى بمركز طبي البالغ الأهمية السابقة. ولسنا أمام تاريخ وإف، يوضح لنا ما كان من اشتباك بين الفرس والرومان وطبي، وإنما نحن بإزاء أحداث متناثرة في شيايا الكتب، ترى اتصالهم بالرومان وبالفرس؛ وقد تكون أحداثنا جساما، يأتي إليهم ليصلح ما بينهم فيها ملك من ملوك الفسانيين، فإذا أنت نظرت في أسبابها، وجدت السبب ناقة من النوق مثلا .

قد يكون هذا معقولا، ولكنه ينحط بالعرب من الناحية الاجتماعية إلى درك لا يمكن أن يتفق مطلقا مع تلك الثقافة النفسية، التي تستدينها في نظام فتحهم أيام الإسلام، وفي اتباعهم التعاليم التي كان يملئها عليهم قائدهم ودينهم حرفا بحرف، وفي الوفاء بعهودهم، ذلك الوفاء الذي هو مضرب الأمثال، والدين يومئذ طارئ على أمة لو صح ما تتصوره عن حالها لما كفته قرون زجر ووعظ وممارسة، ليبلغ من نفوسهم ذلك المبالغ العجيب .

إن أمة كهذه لا يستطيع إنسان أن يقبل ما ينقل إليه من تاريخها في تلك الأيام، على صورته تلك، هذا القبول الساذج السهل. ونحن أمام هذا التناقض مخبرون بين اثنتين: نحو التاريخ القديم جملة، لأنه يتناقض مع المتأخر ولا يجاريه، وبينهما تفاوت لا يلائم طبائع الأشياء؛ أو فهمه على ضوء التاريخ المتأخر عنه، المروى الصحيح عن الإسلام وما كان فيه، مع ملاحظة دائمة واعية

لما يلوح لنا بين سطور المنقول عن القديم . ففي المنقول إلينا عن الجاهلية غالبا ، معالم واضحة الدلالة على الحقيقة التاريخية ، ولا سيما إذا هي جردت من تخيف العلة المنقولة ، حين تلوح إلى جانبها العلة المعقولة .

## ٦ - علاقة طبي بجاراتها

كان سلطان طبي<sup>١</sup> يمتد من الشرق ، حتى يخالط تغاب وبكرا في ديارها ، ويمتد من الجنوب في نجد امتدادا غير معروف الحدود تماما ، وإلى الغرب حتى حدود الحجاز ، ومن الجنوب الغربي إلى المدينة ، ومن الشمال إلى القرى من ناحية الشام .

أما القبائل التي كانت تناوحها ، فمن الشرق بشمال قليلا : بكر ، وتغاب النصرانية ؛ ومن الشمال بقرب قليلا : كلب في بادية الشام ، وهم أحلاف الروم ، كما يقول دى برسيغال في تاريخه ؛ ومن الجنوب بغرب : أسد في نجد أولا ، ثم بانحراف إلى الغرب بعد ذلك .

وتاريخ طبي<sup>٢</sup> في الجاهلية يتصل بهؤلاء جميعا ، كما يتصل بالحيرة وفيها ملوك اللخمين ، وبالشام وفيها الغساسنة . ولم تكن القبائل المحيطة بها حوائل بينها وبين الشام ، أو بينها وبين الحيرة . فالطائيون كثير والذشاط ، كثير والحركة منذ القدم . وفي تاريخ ابن خلدون<sup>(١)</sup> : أن تبعا أبا كرب لما غزا العراق أيام أردشير بهمن ، كانت طريقه على جبل طبي<sup>٣</sup> ، ومنته إلى الأنبار ، وانتهى إلى موضع الحيرة ليلا ، فتحيروا ، وأقام ، فسمى المكان الحيرة ، ثم سار لوجهه ، وخلف هنالك قوما من الأزد ونخم وجذام وعاملة وقضاة ، وطنوا ولحق بهم ناس من طبي<sup>٤</sup> و ... الخ .

وقال أبو عبيدة : « جاء الإسلام وليس أحد أعز دارا ، ولا أمنع جارا ، ولا أكثر حليفا من شيان ، كانت ... وكانت عكرمة من طبي<sup>٥</sup> ... في بني الحارث ... وبنو حبت من طبي<sup>٦</sup> في بني تميم ... كل هذه قبائل و بطون جاورت شيان ، فعزت بها وكثرت<sup>(٢)</sup> » .

ولما هزمت جديلة في حرب الفساد - هزمتها أختها الغوث - نخرجوا عن الجبال ، فلحقوا بكاب ، وحالفوهم وأقاموا فيهم عشرين سنة<sup>(٣)</sup> . ويزيدنا ابن حزم في جمهرته إيضا فيقول : إن جديلة وحبيش والأسعد رحلوا كلهم عن الجبلين في حرب الفساد ، فلحقوا بحلب . ويقول دى برسيغال : إنهم نزلوا حول قنسرين - والبلدان متقاربتان - وذلك بعد جفاء أسوه من كاب<sup>(٤)</sup> . ويقول ابن خلدون : إن كسرى لما قتل النعمان بن المنذر ، أداله بياض بن قبيصة الطائي ، وأنزل طبيئا بالحيرة مكان نخم<sup>(٥)</sup> .

(١) الأغانى ج ١١ ص ١٢٧

(٢) ابن الأثير ج ١ ص ٢٧٩

(٣) ج ٢ ص ٢٣٧

(٤) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٤ وما بعدها .

(٥) ج ٢ ص ٦٢٩

هذه طيّ في الجاهلية وقبيل الإسلام ، وما كانت تشغل . ن . كان . ومنها نرى أن قبيلة منهم كان متصلا اتصالا وثيقا بالفسانيين ، وقبيلة كان متصلا أيضا اتصالا وثيقا بالخميين في الحيرة . ولنبدأ برسم اتصالهم بهما .

( ١ ) علاقتها بالحيرة : أما اتصالهم بالحيرة فواضح جدًا ، فقد رأينا أن أناما منهم كانوا يقيمون بها منذ غزوة تبع أبي كرب لها ، كما ذكرت .

وفي ابن الأثير أن عمرو بن المنذر غزا مرة ومعه زُرارة بن عُدس التيمي ، فأخفق ، فلما كان بجبال جبلي طيّ قال له زُرارة : أي ملك إذا غزنا لم يرجع ولم يصب ، فإل على طيّ ، فإنك بجبالها . قال إليهم ، وقتل وأسر وغنم ، فعرفتها له طيّ ، حتى إذا كان يوم قتل فيه رجل من بني عبد الله بن دارم التيمي - أبنا لعمر بن المنذر ، كان يربي عند زُرارة ، أخذ في تحريض عمرو بن المنذر على زُرارة شاعر من طيّ ، اسمه عمرو بن مَلِقط الطائي في شعر منه :

فَأَقْتُلْ زُرارة لا أرى في القوم أوفى من زُرارة

ويزيد صاحب الأغاني على ذلك أشياء ، منها أن عمرا امتنع عن ذلك أولاً ، وقال لزُرارة لما أشار عليه بغزو الحمى من طيّ : ويلك ! إن لهم عقداً ! أما العقد الذي يشير إليه فيقول : إنه كان عاقده هذا الحمى من طيّ ( وليس طيئاً كلها ) ، على ألا يتازعوا ولا يفاخروا ولا يغزوا . ويقول : إن غزوة عمرو هذه كانت لليامة .

وإن ملكاً ينكت بالعقد بهذه السهولة ، لأن زُرارة حرضه لغير سبب سوى هذا السبب الساذج ، لأمر مستبعد . وأقرب احتمالاً منه أن يكون اتصل به أنهم تقضوا عهده من زُرارة هذا . أما في أيام النعمان بن المنذر فالعلاقة أمتن . فقد كان النعمان جعل لبني لام بن عمرو بن طريف ابن عمرو بن ثُمّامة ... بن جُنْدَب بن خارجة ( وهم من جديلة ) ربع الطريق طعمة لهم . ويعال ذلك بقوله : وذلك لأن بنت سعد بن حارثة بن لام ، كانت عند النعمان ، وكانوا أصهاره .

والأمر على ما أرى منعكس ، فهو إنما صاهرهم ليتألفهم ، وأن ذلك لم يكن إلا بعد محاولات وحروب ، وإنا لنجد رجلاً اسمه أوس بن سعد يقول للنعمان : « أنا أدخلك بين جبلي طيّ حتى يدين لك أهلها » .<sup>(٤)</sup>

وقد رأينا قبل ذلك كيف أن الملك انتقل إلى إياس بن قبيصة الطائي بعد النعمان، وأن كسرى نقل طبيئا إلى الحيرة مكان نخم، وإياس بن قبيصة هذا من الغوث .

من هذا كله تتبين الصلة بين الفرس وطبي، واشتباكها الوطيد بهم، وإنما يرجع ذلك إلى أهمية موقع طبي بالنسبة لطرق القوافل، التي تخترق الجزيرة العربية .

(ب) علاقة طبي بالغسانيين : قلت فيما مضى إن المقترين من طبي إلى النعمان في ملكه، كانوا من بني جديلة من طبي، وإن الذي ملك على الحيرة بعد النعمان هو إياس بن قبيصة، وهو من بني الغوث من طبي . ولا بد لهذا التحول من أصل غير مجرد المصاهرة بين النعمان وجديلة . وقد يكون هذا راجعا إلى عدم قبول بني الغوث النعمان في جبلهم لما طارده كسرى .

وهناك شيء آخر، ذلك هو التجاء جديلة من طبي إلى بلاد كلب وحلب، وكتب حلفاء للرومان كما يقول ابن حزم، أو خاضعون لهم كما يقول دي برسيغال، فلم اختارت جديلة الشام خاصة ؟ وأمر ثالث : ذلك أن ابن الأثير يقول في حديثه عن يوم اليحامي (قارات حوق) <sup>(١)</sup> :

« وهو بين قبائل طبي بعضها في بعض، وكان سبب ذلك أن الحارث بن جبلة الغساني كان قد أصلح بين طبي، فلما هلك عادت إلى حربها » .

فهذا ملك من ملوك الغسانيين يتوسط في الصلح بين بعض طبي وبعض، والمعروف أن ما وقع بين طبي من حروب، هي المسماة بحرب الفساد . فما دخل الحارث بن جبلة في الأمر أولا ؟ وما علة اختيار الشام خاصة مهاجرا، بعد هذا اليوم الذي يكمل حربا توسط فيها هذا الملك الغساني؟ وما قيام الغوث في الحيرة بالأمر بعد النعمان صهر جديلة، وخصوصا إذا عرفنا أن إياسا كان حكمه في الحيرة حول سنة ٦٠٢ م . وحرب الفساد وقعت حول سنة ٦١٠ م ؟ <sup>(٢)</sup>

يجيب عن هذه الأسئلة كلها ما يأتي من تفصيل العلاقة بين طبي والفرس وبينها وبين الروم .

(ج) علاقة طبي بالفرس والروم : كانت جزيرة العرب محل نزاع بين الدولتين العظيمتين اللتين تناحمانها، وكانت أداة من أدوات الصراع الهائل المشبوب بينهما أبدا، فكل منهما تحاول

(١) ج ١ ص ٢٩٣ (٢) مادة طبي في دائرة المعارف الإسلامية : « ومن اللاجئيين إلى الروم في الإسلام أيضا حريث بن زيد الخليل، لقتله أبا سفيان الفهري، رجلا كان أرسله عمر بن الخطاب يستقرئ أهل البادية القرآن، فاستقرأ أوس ابن خالد بن منبه بن عبد رضا، فلم يدر شيئا، فغضب به فقتله، فوثب حريث على أبي سفيان فقتله، ثم هرب، فلحق بأرض الروم، فات هناك » . جمهرة ابن حزم .

أن تسود فيها، وكانت طبيعة موقع كل منهما، تدعوه إلى السيادة على جزء من أجزاء هذه الجزيرة، فسلطان الفرس يمتد في شرق الجزيرة العربية، مما يلاصق حدودهم في العراق وعلى خليج فارس؛ فكان المنذر بن النعمان ملكا، ملكه كسرى على عمان والبحرين واليمامة، إلى الطائف وسائر الحجاز<sup>(١)</sup>.

وكانت الرومان تبسط نفوذها على الشام ومن فيه من العرب، وعلى ما يلاصق حدودهم من الجزء الشمالي في جزيرة العرب، وفيه كلب حليفهم، وكان على أعراب الشام خالد بن جبلة الغساني. وينسب ابن الأثير اجتياح كسرى الأول للشام وفتحها إياها إلى خصومة بين هذين الملكين العربيين<sup>(٢)</sup>.

وذلك في حكم كسرى أنوشروان على الفرس، وحكم جستينيان على الروم، وهما الملكان المتعاصران (٥٣١ - ٥٧٩ م)<sup>(٣)</sup>.

وكلاهما كانت تتمثل فيه تلك الخصومة الكائنة أبدا بين الشرق والغرب، وكلا الأmirين العربيين كان يمثل سياسة صاحبه، ويجهد في التغلب على الآخر. ولم تكن جزيرة العرب بالأرض السهلة، التي يستطيع إخضاعها لسلطان واحد، وأجراء الأحكام عليها مجرى النفوذ الدائم، للقطع الطبيعي البادى بين مقامات الناس فيها، فكانت خير الوسائل هي سياسة استمالة القبائل، تمنح إليها كل من الدولتين المتنافستين. وكانت طبيقتين: الغوث وتقيم بالجبال، وجديلة وتقيم بالسهول، ولما اتسعنا أنساحتها فيما حول الجبال من الأرض. ويظهر أن طبيقتا في جملتها كانت أميل إلى محالفة الفرس. فكان الغسانيون يباحون عليهم بالغارة محاولة لإخضاعهم. وفي الاشتقاق: أن معترا أحد فرسان الغوث، قتل ملكا من غسان كان غزاهم<sup>(٤)</sup>، فكان أكثر طبيقتهم لغاراتهم جديلة، كما أن مقام جديلة في السهل، واتصلهم بكلب حليفة الروم، كان يقرب بينهم وبين الروم، فكانت جديلة أكثر ميلا إلى محالفة الروم، لتأمين هذه الغارات المنظمة على أرضهم؛ أما الغوث فكانت تمتنع بجبالها، فلا يكاد الغسانيون ينالونهم بشيء، ولذلك بقيت على ولائها للفرس، فكانت القبيلة منقسمة إلى هذين الشطرين.

(١) ابن الأثير، ج ١ ص ١٩٤ (٢) ابن الأثير، ج ١ ص ١٩٤ : (يقول: "إن خالدًا هاجم المنذر فقتل من قومه أناسا فأرسل كسرى إلى غسطانيوس (جستينيان) يذكره ما بينهما من العهد والصلح ويعلمه مالتق المنذر ويسأله أن يأمر خالدًا بردة ما غنم، ودفع دية من قتل، وإلا انتقض الصلح. فلم يرد. فراجعهم فلم يحفل به. فاستعد وغزاه، وكان طريقه على الجزيرة، فأخذ مدن دارا والرها. وعبر إلى الشام، فلك منج وحب وأنطاكية... وحصن ومدنا كثيرة متاخمة لهذه المدن... وأما سائر مدن الشام فان غسطانيوس ابتاعها بأموال عظيمة") (٣) (Outline of history: Wells)

(٤) الاشتقاق ص ٢٢٨

وكانت فارس لا يفوتها أن تجتذب جديلة، فهي تسمى إلى ذلك . ومن هنا يأتي إصهار النعمان  
أبن المنذر ملك الحيرة إلى بنى لام من جديلة، وإعطاؤهم ربع الطريق طعمة لهم .

ولكن ذلك الحلف لا يدرم، لعامل خفي لا نعرفه، قد يكون نتيجة محاولة جديدة من الروم  
أن يضموا جديلة إليهم، ويكون ذلك لنكبتهم في صهرهم النعمان عند كسرى، وغضب كسرى بهم  
وحرمانهم ما كانوا يأخذونه من دخل ربع الطريق .

وعلى أثر ذلك تقوم حرب الفساد بين الغوث و جديلة، حول سنة ٦١٠ في ولاية إياس بن قبيصة  
على العراق، بعد النعمان بن المنذر . وليس من الغريب أن تقوم هذه الحرب بين هذين الحيين من القبيلة  
الواحدة تفرق بينهما السياسة، في زمن يقوم فيه أيضا ذلك الصراع العنيف بين دولتي الفرس والرومان .  
ففي ذلك الوقت نفسه كانت انتصارات كسرى الثاني ( كسرى أبرويز = ٥٩٠ - ٦٢٨ م )  
تترى على الروم، وجيوشه تكتسح أنطاكية ودمشق، وتسقط في أيديهم مدينة بيت المقدس  
سنة ٦١٤ م، ويأخذون منها الصليب المقدس كما يقولون، حتى يقف سورة هذا الفتح هرقل  
من ابتداء سنة ٦٢٣ م، ويضع له حدا في نينوى سنة ٦٢٧<sup>(١)</sup>، وليس من الغريب أن تلجأ جديلة إلى  
كلب حول هذا الزمن، ثم تفارقهم، فتنزل حول حاب بعد انتصار الروم على الفرس واسترجاعهم الشام .  
أما الغوث فهي مع الفرس، ينقذ أحدها، وهو حسان فارس الصيب، كسرى أبرويز على  
فرسه، في حرب بينه وبين قائد يشور به من قومه، هو بهرام شويين<sup>(٢)</sup> . وتشترك في الحرب مع الفرس  
في هجمة الروم على النهروان، حتى يقول صاحب الاشتقاق عن إياس بن قبيصة الطائي من الغوث :  
إنه "هزم الروم لما نزوا النهروان في أيام برويز"<sup>(٣)</sup> .

فوقف طبي في الحرب بين فارس والروم لم يكن سائيا . ولم يقف عند حد الصراع بين بعضها  
بعض، ولكنه تعذاه إلى الاشتراك العملي في الحرب القائمة حينئذ بين الدولتين .

والحرب بين طبي وبعضها وبعض لم تكن إلا جزءا من ذلك الكفاح بين الفرس والرومان،  
ولا أغالى إذا قلت إن شيئا من الظن يلوح للناظر في هذا بأن جزيرة العرب كلها كانت قسما من  
ميدان الحرب القائمة بين هاتين الدولتين، وأن نهضة العرب بعد ذلك لم تكن إلا نتيجة تلك الانفعالات  
القاسية التي تذب الأُمم للعمل، وتوقفها من السبات، وتجمع بين أشناتها، وتكون مصدرا للإلهامها  
آلا جساما، بتحميلها آلاما جساما .

(١) (Outline of History. P. 388.) (٢) الاشتقاق : طبي ص ٢٣١ (٣) الاشتقاق ص ٣٣١

في هذا كله ما يدل على الاتصال السياسي بين طبي، بل هذا الحى من طبي خاصة، وهو جديلة، وبين الغسانيين . وفيه ما ثبت ما قلت من اشتراك طبي اشتراكا عمليا ببطنها في سياسة هاتين الدولتين . وفيه أيضا تفسير واضح لتلك الأموال الغزيرة ، التي كانت تُتدفق على الطائيين ، لأنهم حماة جزء هام جدا من الطريق التجارى بين اليمن والحيرة، وبين اليمن والعراق .

وفيه تفسير لذلك النزاع الهائل ، الذى كان يشب بين الأخوين ويفرق بينهما . وفيه تفسير تلك الحروب التي كانت تقوم بين طبي وجارتها .

وليس تفسير ذلك كله في قصة الجمل ، الذى أبى صاحبه أن يدفعه إلى آخر من طبي قبيلته ، فثارت بينهما الحرب المسماة بحرب الفساد ، فتدخل الحرث بن جبلة ليصلح بينهما . كما أن هناك ظاهرة غريبة . تلك هي لجوء الفارين من طبي إلى الشام ، وزول شعراء منهم بالغسانيين ، فأبو زيد الطائي قصد في الجاهلية الحرث بن أبى شير الغساني . والبرج بن مسهر الجلاس الطائي اقتضى أخته في سكر له ، وكان نازلا بغطفان هو وجماعة من طبي ، فلما ظهر أمره ركب رأسه ، وخرج من بين أظهرهم ، ولحق ببلاد الروم ، فلم يعرف له خبر .<sup>(٢)</sup>

والصلة واضحة بين طبي وبين الروم من كل ما سردته . فاذا اقتبست طبي أسماء رومية ، فلا غرابة في ذلك . هذا لو صح أن اسم والد أبي تمام هو تدوس .

صلة طبي بالقبائل العربية : أما صلة طبي بالقبائل العربية ، فقد كانت صلة تحالف أحيانا ، وصلة تحارب أحيانا . ففى برسيقال أنهم كانوا حلفاء أسد . وقد كان يشب ما يبيض هذا الحلف فيتحاربون .

وفى الأغاني نجد أنه كانت لهم مغاورات مع عبس ، ومنها تلك الموقعة التي تبنى فيها عنتره أبوه بعد إنكار<sup>(٣)</sup> . وكان بينها وبين غنى موقعة ، أوقعت فيها غنى بطبي ، وكانت الموقعة بين القنان وشرق سلمى ، وفيها يقول طُفيل الغنوى شعرا ، منه :

فذوقوا كما ذقنا غداة حُجْرٍ      من الفيظ في أجدانا والتحويب<sup>(٤)</sup>  
فبالقتل قتلٌ ، والسؤام بمثله ،      وبالشل شلُّ العابط المتصويب

(٣) الأغاني ج ١٠ ص ٢٢

(٢) الأغاني ج ١٢ ص ١٢١

(١) الأغاني ج ١١ ص ٢٣

(٤) الأغاني ج ١٤ ص ٨٦

قال أبو عمرو الشيباني: وكان زيد الخيل مَلِحًا على بني أسد بغاراته، ثم على بني الصبيداء منهم<sup>(١)</sup>، وكانت له غارات في جموع من طبي<sup>٢</sup> على بني عامر. وكان لبني عامر أيضا غارات على طبي<sup>٣</sup> نارا لهذه، وقد وقع في يده في غارة من هذه الغارات الحطيثة الشاعر، بجز ناصيته وأطلقه. وله غارات على سليم وفزارة.

### ٧ - منزلة طبي<sup>٤</sup>

أما منزلة طبي<sup>٤</sup> فقد رأينا من قبل منعتها في مقاماتها وغناها. وتلك جميعا أساس العظمة النفسية والسمو الخلقى. وإن خيرا ما يؤدي صورة عن طبي<sup>٤</sup> هو قول زيد الخيل فيها لعمر بن الخطاب، لما دخل زيد إلى النبي صلى الله عليه وسلم في بعث قومه عام الوفود، قال: "في كلِّ يا عمر نجدة وبأس وسيادة... أما بنو حية فملوكا وملوك غيرنا... وهم القادة، والحماة الذادة... الخ. فقال عمر: ما تركت لمن بقي من طبي<sup>٤</sup> شيئا، فقال: بلى والله، أما بنو ثعل وبنو نهبان وجرم ففوارس الغدوة، وطلاعو نجوة... الخ وأما بنو جديلة فأسهلنا قرارا، وأعظمنا أخطارا... الخ ثم عدده رجلا من رجالهم، وصف كلا منهم بصفة، ومضى في ذلك، فاعترض رجل من بني ثعل لما مدح زيد حاتما، وقال: ومنا زيد بن مهلهل النهاني، سيد الشيب والشبان، وسم الفوارس... أسرع إلى الإيمان، وآمن بالفرقان، رئيس قومه في الجاهلية وفي الإسلام، رائدنا إلى رسول الله عليه السلام... ومنا الأسد الرهيص<sup>(٢)</sup>".

ومنهم حاتم بن عبد الله الكريم المعروف، وحكاياته أشهر من أن يعترف بها أحد، ويقال في الوصف: لهم جُرأة بني الحارث، وفتك مُراد، وبأس زُبيد، وكيد جُحف، ومُغار طبي<sup>٤</sup>. ويمتاز خلق الطائيين بحلاوة وسمو، وسماحة بالغة ووفاء.

### ٨ - عبادات طبي<sup>٤</sup> قبل الإسلام

"كان لطبي<sup>٤</sup> صنم يقال له الفِلس، وكان أنفا أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له أجا، أسود كأنه تمثال إنسان. وكانوا يعبدونه، ويهدون إليه، ويعترون عنده عتائهم، ولا يأتيه خائف إلا آمن عنده، ولا يطرد أحد طريدة فيلجا بها إليه، إلا تركت له، ولم تخفر حويته<sup>(٣)</sup>، وكانت سدنته بنو بولان، وبولان هو الذي بدأ بعبادته، فكان آخر من سدنه منهم رجلا يقال له صيفي<sup>(٤)</sup> وقد أخفراه

(١) الأغاني ج ١٦ ص ٤٦ وما بعدها. (٢) النص في الأغاني ج ١٦ في ترجمة زيد الخيل.

(٣) الحوية كغنية: الدائرة، أي ولم يصن حقه. (٤) الأصنام لابن الكلبي ص ٥٩

رجل شمجى شريف الحكاية ذكرها الكلبى ، فلم يصبه شيء وعدى بن حاتم يومئذ عنده ، فترك عبادة الصنم . ” ولم يزل الفيلس يُعبد حتى ظهرت دعوة النبي عليه السلام ، فبعث إليه على بن أبي طالب ، فهدمه ، وأخذ سيفين كان الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان قلده إياهما ، يقال لهما مَحْدَمٌ ورَسُوبٌ ، فقدم بهما على النبي ، فتقلد أحدهما ، ثم دفعه إلى على بن أبي طالب ، فهو سيفه الذي كان يتقلده .<sup>(١)</sup> أما ابن هشام في السيرة فيقول أن زيد الخليل هو الذي أهدى السيفين إلى النبي في مقدمه عليه .<sup>(٢)</sup> ” وذكر بعض الرواة أن رُضًا كان بيتا لبني ربيعة بن كعب بن زيد مائة ، فهدمه المستوغر<sup>(٣)</sup> .

ومع ذلك فإنه يذكر كمعبود لطبي في مواضع أخرى كالأغاني ، وفي أجداد بعض الطائيين من يسمى رُضًا ، يمد ويقصر .

هذه عبادة من عبادات طبي ، وهي الوثنية .

وكان في طبي أيضا النصرانية ، فإن عدى بن حاتم بعد الحادثة الماضية وإخفار الفيلس ، تنصر ، وهو يقول عن نفسه : ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به منا ، أما أنا فكنت أمراء شريفا ، وكنت نصرانيا ، وكنت أسير في قومي بالمرباع .<sup>(٤)</sup> فكنت في نفسي على دين ، وكنت ملكا في قومي ... فلما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم كرهته . فقلت لفلان لي عربي ، وكان راعيا لإبلي ، أعدد لي مراحل ، أجمالا ذُلًّا سمانا ، فاحتبسها قريبا مني ، فإذا سمعت بجيش محمد قد وطئ هذه البلاد ، فأذني ، ففعل ...<sup>(٥)</sup>

ثم هرب إلى الشام تاركا أختاه له ، أخذها الجيش المسلم إلى رسول الله ، فأطلقها إكراما لأبيها . ومن النصارى فيهم أبو زبيد الطائي الشاعر المعروف ، وهو ممن أدرك الجاهلية والإسلام ... وكان من زوّار الملوك ، وكان عثمان يدينى مجلسه برغم نصرانيته .<sup>(٦)</sup> ومنهم أيضا وزر بن سدوس : لما سمع بالنبي حلق رأسه ، وتنصر ، وهرب إلى الشام .<sup>(٧)</sup>

ويرى دى برسيغال أنه كانت فيهم يهودية . وربما استؤنس لذلك بما يقال من أن كعب بن الأشرف شاعر اليهود ، الذي كان يهجو النبي ويحترض عليه المشركين في المدينة ، حتى أمر النبي به فقتل ،

(١) الأضنام : ص ٦١ و٦٢ (٢) الروض : ج ٢ ص ٣٤٢ (٣) الأضنام : ص ٣٠

(٤) وهو أن يأخذ ربع المقم . (٥) الروض الأنف : شرح السيرة ص ٣٤٣ من ج ٢

(٦) الأغاني : ج ١١ ص ٢٣ (٧) الروض الأنف : ج ٢ ص ٣٤٢

كان أبوه من طبي<sup>(١)</sup> . كما أن خير كانت في مكان تبسط فيه أيدي الطائين إلى حد بعيد ، وهي قريبة جدا من جبال طبي<sup>(٢)</sup> ، وعلى الطريق بين المدينة وبينها .

ويقول برسيغال أيضا إنهم كانوا يتوجهون من النجوم إلى سهيل<sup>(٣)</sup> .

وقد ظلت طبي<sup>(٤)</sup> متصلة بالنصرانية اتصالا محكما ، حتى بعد الإسلام ، فكانوا في ظروف كثيرة ينضمون إليها ، فتعاب منها كانوا في الشام مع الصليبيين في هجرتهم عليها ضد المسلمين<sup>(٥)</sup> ، وذلك في أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي . ويبدو لي أن النصرانية في طبي<sup>(٦)</sup> كانت تلي الوثنية من حيث الانتشار ، وتليهما اليهودية ، وتلك نزر يسير .

## ٩ - طبي في الاسلام

(١) إسلام طبي : يكتنف إسلام طبي غموض في كيف أسلمت؟ فزيد الخيل يأتي النبي على رأس وفد ، فيستقبله النبي ويثني عليه ثناء جما ، ويسميه زيد الخير ؛ ومع ذلك فتحن نسمع أن عليا رضي الله عنه قد ذهب إلى جبال طبي<sup>(٧)</sup> في خمسين أنصاريا ، على قول دائرة المعارف الإسلامية ، لكسر صنهم الفليس . وفي القصة أنه أحضر معه ابنة حاتم أسيرة ، وهي أخت عدى ، ثم أطلقها النبي . فالوفد معناه إسلام القبيلة ، واستحضار الأسرى معناه مقاومتها للمسلمين ؛ ولو قاومت طبي<sup>(٨)</sup> لما كفى لحربها علي<sup>(٩)</sup> ومعنه خمسون أنصاريا ؛ فلا يبقى إلا أن عليا ذهب لكسر الصنم ، في قبيلة أسلمت إلا قليلا منها كعدى<sup>(١٠)</sup> بن حاتم ، الذي سار إلى الشام تاركا أخته ، فأخذها الإمام علي ، لأنها لم تسلم ، وأخوها لم يسلم أيضا .

ولكن تبقى القصة التي تقول إن عليا رآها جميلة ، ولم يكن يعرفها ، فكاد يطلبها من النبي ، ولكنها كلمت النبي ووصفت له أباه ، فقال لها : يا جارية هذه صفة المؤمن ، وأطلقها<sup>(١١)</sup> . فإن هذه تدل على أن عليا لم يعرفها ، مع أنه هو الذي أتى بها إن صححت الرواية .

وهناك رواية أخرى في الروض الأنف ، أنها كلمت النبي مرتين ، فأغضى عنها ، فلما كان ثالث يوم كادت لا تسأله ، ولكن رجلا أشار إليها أن تعيد عليه الطلب ثانيا ، ففعلت ، فلما سألت عنه بعد ذلك أخبروها أنه علي بن أبي طالب . فهى الأخرى لا تعرف عليا ، فكيف يكون هو الذي أتى بها من طبي<sup>(١٢)</sup> ؟

(١) الأغاني ج ١٩ ص ١٠٦ (٢) برسيغال : تاريخ العرب قبل الاسلام . (٣) البيان والاعراب للقريري .

(٤) الأغاني ج ١٦ ص ٩٣

الواضح أن في الأمر اضطراباً، والمفهوم إجمالاً أن طيئاً أسلمت من غير حرب، وأن عدى بن حاتم أسلم هو الآخر، وجعله النبي على زكاة طيئ وصدقها ومعه آثران، وذلك عام الوفود؛ وكان على رأس الوفد الذي جاء من طيئ للنبي زيد الخيل، وقد كتب له النبي، فقطع له فيد وأرضين معها، ولكنه مات في الطريق<sup>(١)</sup>. وأسلم كل من جاء إلا وزير بن سدوس، فإنه قال: إني لأرى رجلاً يملك رقاب العرب، ولا والله لا يملك رقبتى عربى أبداً، ثم لحق بالشام، وتنصر وحلق رأسه.

هذا عن إسلام طيئ كلها، على ما يظهر. أما أنه كان هناك منها أفراد مسلمون قبل ذلك، فذلك يفهم مما يذكره الواقدي عن أربعة من المنافقين سبوا النبي إلى تبوك قبل غزوها، منهم الحارث بن يزيد الطائي<sup>(٢)</sup>.

وفي غزوة تبوك نجد رجلاً طائياً مسلماً يقول شعراً، واسمه ببيعة بن بجرة<sup>(٣)</sup>. وفي غزوة تبوك ممن لهم السبق في الإسلام، واشتركوا في بدر الكبرى، نجد رجلاً اسمه أبو مخشي الطائي<sup>(٤)</sup>، وكان حليفاً لبني حجر آل بني سليم المسلمين والغازين في بدر، وعدتهم ستة عشر رجلاً. "ومن له صحبة من الطائيين جرير بن أوس بن حارثة بن لام الطائي، وابن أخيه عمرو بن مضر بن أوس بن لام الطائي، له صحبة ورواية"<sup>(٥)</sup>.

(ب) طيئ زمن الردة: يقول ابن الأثير<sup>(٦)</sup>: لما مات النبي... وسير أبو بكر جيش أسامة، ارتدت العرب عامة أو خاصة، إلا قريشاً وثقيفاً. واستغلظ أمر مسيلمة وطلحة (الأسدي). "وتبع طليحة كثير من العرب عصبية، ولذلك كان أكثر أتباعه من أسد (قومه) وغطفان وطيئ... وسارت فزارة وغطفان إلى جنوب طابية، وأقامت طيئ على حدود أراضيهم"<sup>(٧)</sup>.

وكان انضمام طيئ إلى أسد في هذا الحلف كان بينهم<sup>(٨)</sup>، لم يروا أن ينكثوا به، وكان طليحة يقيم بزاخة<sup>(٩)</sup>، وهو ماء لأسد، "فأرسل إلى جديلة والغوث من طيئ يأمرهم بالهاق به، فتعجل إليه بعضهم، وأمروا قومهم بالهاق بهم فقدموا على طليحة"<sup>(١٠)</sup>.

ويظهر أن عدى بن حاتم لم يكن فيهم يومئذ، فقد كان ذهب بصدقاتهم إلى المدينة، فلما عقد أبو بكر رضي الله عنه لخالد اللواء، ووجهه إلى طليحة، أمره أن يبدأ بطيئ، ومنهم يسير إلى بزاخة.

(١) الروض الأنف ج ٢ ص ٣٤٢ (٢) الروض الأنف ج ٢ ص ٣١٦ (٣) الروض الأنف ج ٢ ص ٣٢٠

(٤) الروض: الأنف ج ٢ ص ٩٥ (٥) جبهة الأنساب لابن حزم (٦) ج ٢ ص ١٦٥

(٧) ص ١٦٦ ولم نجد مكاناً باسم طابية في المعاجم ولكن في ياقوت "طابة" مكان من أرض طيئ. فلهذا المراد.

(٨) ص ١٦٨ (٩) نعيم البلدان: ياقوت (١٠) ابن الأثير، ج ٢ ص ١٦٧

”استمهله عدى“، وقدم على طبي“، فدعاهم وخوفهم فأجابوه، وقالوا له: استقبل الجيش: (جيش خالد)، فأحره عنا حتى نستخرج من عند طليحة منا، لثلاث يقتلهم؛ ففعل، وأرسلت طبي إلى إخوانهم عند طليحة، فاجتقوا بهم، فعادت طبي إلى خالد بإسلامهم، ولحق بالمسلمين ألف راكب منهم، فكان خير مولود في أرض طبي“<sup>(١)</sup>.

وكانت طبي شديدة النصب للوفاء بحلفهم لأسد، فأرأوا أن يكفوا خالد بن قيس بدلا من حرب أسد، لما بينهم وبين أسد من حلف يدعوهم إلى كف أيديهم عنهم، وعارض في هذا عدى بن حاتم قائلا: ”لو نزل هذا على الذين هم أسرتي، الأذنى فالأذنى، لجاهدتم عليه“ ولكن خالد رأى أن يذهب عدى معهم إلى من هم لقاتلهم أنشط<sup>(٢)</sup>.

ويقول ابن الأثير في مكان آخر، في الكلام على حروب الردة: إن خالد لما انتصر، لم يقبل من أحد من أسد وخطفان وطبي وسليم وعامر، إلا أن يأتوه بالذين حرقوا وقتلوا وعدوا على المسلمين في حال ردتهم، فأتوه بهم، فمئل بهم، وحرقهم، ورصصهم بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونكسهم في الآبار.

وفي الكلام عن أم زمل: ”واجتمع أفلال خطفان وطبي و... إلى أم زمل، فلما بلغ خالد أمرها سار إليها، فاقتتلوا قتالا شديدا، فقتلت“.

ويستخلص من هذا كله، أن طينا ارتد أكثرها عن الإسلام بعد موت الرسول، ومنعوا الزكاة، وبقى ناس منهم على إسلامهم.

فأما المرتدون فكانوا فئتين، فئة لزمت حدود بلادهم، لا يضيقون على ما يظهر بشيء قدر ما يضيقون بالزكاة، فهم يمنعونها، ولكنهم لا يتوسلون بقتل ولا نهب في مقاومة الإسلام؛ وفئة أعملت في المسلمين السلب والنهب والتحريق، وأولئك رأينا ما كان من خالد في عقوبتهم، فلما انتصر خالد هرب منهم أفلال إلى أم زمل، فقاتلوا معها حتى قتلت. والواضح أن أولئك المرتدين المقاومين منهم لم يكونوا كثيرين.

(ج) طبي في الفتوح: ثم جاء عصر الفتوح، وقام العرب بنصيبهم الضخم في تكوين تلك الحلقة من سلسلة النشوء الإنساني، وساروا بذلك الجهد المقدور الذي لا يرد، يسحقون الممالك، ويدوسون التيجان، ويهزون ذلك العالم الذي استغرقه سبات قرون طوال ليفيق، وقامت طبي

بنصيبها فيهم ، فهم يشاركون في فتوح الممالك ، ويتفرفون في البلدان ، ففي الشام منهم قوم ، وهم بها خيرون ، فمن قبل نزلت بها جديلة منهم بعد حرب الفساد ، وكان يتتابع إليها من الغوث أناس ، لشئون أبنيت بعضها فيما سبق . وفي العراق منهم قوم يفتحون ويجاهدون ، فالسليل بن زيد بن مالك ابن المعلِّ السَّنْسَبِيّ يفرق يوم اجتاز المسلمون دجلة إلى المدائن ، لا يفرق من المسلمين غيره .<sup>(١)</sup>

ويقود خالد بن الوليد جيشه محترقا به بادية السماوة ، سائرا من العراق إلى الشام ، ودليله رافعة<sup>(٢)</sup> ابن عميرة ، وهو يومئذ بها خير خبرة تفجر لسان شاعر عربي ، فيقول فيه :

لله عينا رافع أنى اهتدى فوز من قراير إلى سوى<sup>(٣)</sup>

حتى إذا تم الفتح للمسلمين ، واستقرتوا بالممالك المفتوحة ، استقرت طبي استقرارهم ، فمنهم بالموصل بنو أحمد بن الحارث بن ثمامة بن مالك بن جدعاء .<sup>(٤)</sup> قال ابن سعيد : ومنهم في بلادهم الآن أمم كثيرة ، ملثوا السهل والجبل ، حجازا وشاما وعراقا ... وهم أصحاب الدولة في العرب لهذا العهد في العراق والشام ، وبمصر منهم سنيس والثعالب بطنان مشهوران . ومنهم زبيد بن معن بن عمرو ... بن سلمان ابن تَعَلِّ في برية سنجار :<sup>(٥)</sup> ( من ديار ربيعة بين دجلة والفرات ) ... وبجهة بنيامين والشام بنو صخر . ومن بطونهم غزيرة المرهوب صولتهم بالشام والعراق ... وبنو غزيرة كثيرون وهم في طريق الحاج بين العراق ومجد .<sup>(٦)</sup>

ويقول المقرئ « إن ثعلبة بن سلمان من طبي بقيت حتى أيامه بالشام ، مما يلي أرض مصر إلى الخروبة ... وكانوا يدا مع الإفرنج لما ملكوا البلاد في الإسلام » .<sup>(٨)</sup> والإشارة في ذلك إلى الحروب الصليبية قبيل صلاح الدين وفي أيامه . ويقول أيضا إن ثعلبة هذه وطائفة من جرم أتتا إلى مصر بعد أن فتح صلاح الدين الأيوبي بلاد غزرة .

وفي ابن حزم : أن سدوس (بضم السين في طبي ، وفي غيرها بفتحها) تنزل الأندلس . وفيه أيضا : أن من ولد الطرمح الأكبر ، وهو ابن عدي بن حاتم ، كان أبو مالك أبان بن الصمصامة ابن الطرمح ... وكان راوية الأشعار واللغة ، ساكنا بالقيروان بإفريقية . وكان عمرو بن زيد الخليل على جيش لفتح

(١) جمهرة الأنساب لابن حزم . (٢) رافعة في ابن حزم ورافع في الاشتقاق لابن دريد . (٣) ابن دريد الاشتقاق ص ٢٢٣ (٤) ابن حزم يكتبها جدعاء وابن دريد يكتبها جدعاء . وعبارة ابن حزم بعد هذه قد تشعر أنهم كانوا هناك أيضا في الجاهلية ، فهو يقول : وأبوهم سمى أحمد في الجاهلية .

(٥) تقويم البلدان لأبي الفداء ص ٢٨٢ (٦) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٤ وما بعدها .

(٧) حصن بسواحل الشام مشرف على عكا (ياقوت) . (٨) البيان والإعراب .

الريّ والديلم ، بعثه عمار بن ياسر بأمر عمر بن الخطاب ، فكانت له فيهم فتوح عظيمة ؛ وقد وفد على عمر ، واستخلف مكانه أخاه حنظلة بن زيد الخيل <sup>(١)</sup> . وكانت صلة طيّي بالشام والعراق من هذه البلاد جميعا ، أوثق الصلات ، وأخصها الشام . فقد رأينا تلك الصلة المتينة في الجاهلية ، الماثلة في هجرة الطائيين إليها جماعات وأفرادا ، وفي ذلك التحالف الواضح بين جديله والغسانيين ، وفي محاولات ملوك الغساسنة إخضاع طيّي لها ، وفي تلك النصرانية التي كانت منتشرة في طيّي انتشارا ملحوظا . فلما استقر المسلمون بالمسالك المفتوحة ، بقيت طيّي بالشام ، ورسخت فيه قدمهم ، وسرى فيما بعد أن من كان منهم بالشام كان مع معاوية ، ومن كان منهم بالعراق كان مع عليّ أو الخوارج . ورسخت قدم الطائيين بالشام ، حتى أصبحنا نسمع المؤرخين في الأنساب يتحدثون ، كما رأينا في النصوص السابقة ، عن عزهم بالشام والعراق ، وعن دولتهم ، وعن رهبة جانبهم ؛ وحتى سمعنا ابن خلدون يصرح بأنهم « ورثوا أرض غسان بالشام ، وملكهم على العرب » .

ثم انفرد « بنو مهنّي الملوك على العرب إلى هذا العهد ، بمشارف الشام والعراق وبرية نجد .

( د ) طيّي في عهود الانقسام الإسلامي : ثم تفرّق المسلمون بين علي ومعاوية ، وقامت المنافسة بين الشام والعراق ، واحتربت الحرب بينهما . وانقسمت كذلك طيّي ، فن بالشام منها مع معاوية ، ومن بالعراق مع عليّ .

وانقسم أهل الحجاز على أنفسهم ، بجماعة مع عليّ ، وجماعة مع عائشة ، حتى إذا كان قبيل موقعة الجمل وعليّ بالرّيدة « أتاه جماعة من طيّي ... فقبيل له هذه جماعة قد أتتك ؛ منهم من يريد الخروج معك ، ومنهم من يريدون التسليم عليك ... فلما دخلوا قال لهم : ما شهدتمونا به ؟ قالوا : شهدناك بكل ما تحب . فقال : جزاكم الله ! فقد أسلمتم طائعين ، وقاتلم المرتدين ، ووافيتم بصدقائكم المسلمين . فنهض سعيد بن عبيد الطائي فقال : يا أمير المؤمنين ، إن من الناس من يعبر لسانه عمّا في قلبه ، وإني والله ما أجد لسانى يعبر عمّا في قلبي ، وسأجهد وبالله التوفيق ... فقتل معه بصفيين <sup>(٢)</sup> » .

وسار عليّ من الرّيدة ... فلما نزل بفيدّ أته أسد وطيّي ، فعرضوا عليه أنفسهم ، فقال : الزموا داركم ، في المهاجرين كفاية <sup>(٣)</sup> .

(١) جهمرة الأنساب لابن خزم . (٢) ابن الأثير، ج ٣ ص ١١٢ (٣) المصدر نفسه .

وكان عدى ابن حاتم الطائي صاحب النبي مع علي ، ففُقِئت عينه يوم الجمل<sup>(١)</sup> « وكان مع علي رضى الله عنه في جميع مشاهدته » كان صاحب رايته يوم صفين ، وكان بنو عم عدى بن حاتم : لام ، وحلبس ، وصلحان ، بنو غطيف بن حارثة ، مع معاوية يوم صفين<sup>(١)</sup> ، وكان على رأسهم بالشام حابس بن سعد بن المنذر ، قتل مع معاوية في صفين ، وكان عمر بن الخطاب وآله قضاء حمص<sup>(١)</sup> ، ثم عزله عنها .

يقول ابن الأثير في وصف صفين : « وقالت طبي يومئذ قتالا شديدا ، فعبئت لهم جموع ، فأتاهم حمزة بن مالك الهمداني ، فقال : من القوم ؟ فقال عبد الله بن خليفة ، وكان شيعيا شاعرا خطيبا : نحن طبي الرماح ، وطبي البطاح ... الخ » .

ولما نخرج الخوارج كان منهم أناس في أول من خرج ، فإن زيد بن حصين الطائي ، ورجلا آخر في عصابة من القراء صاروا خوارج فيما بعد ، قال لعلي لما رآه ممتنعا عن الاحتكام إلى كتاب الله : يا علي أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه ، وإلا دفعناك برؤمك إلى القوم ، أو نفعل بك ما فعلناه بابن عفان<sup>(٢)</sup> .

ولما قبل علي التحكيم ، واختار الحكم ، وأراد أن يبعثه للحكومة ، أتاه رجل من الخوارج ، هو زُرعة بن الأبرج الطائي وآخر معه ، يريدانه على الحرب مع معاوية ، يقولون : لا حكم إلا لله . فقال علي : لا أنقض كتابا وعهدا عاهدته إنسانا ... فقال زُرعة : يا علي ، لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك ، أطاب رحمة الله » .

ولما عزم الخوارج على ترك الكوفة ، أرادوا أن يولوا عليهم رجلا ، فعرضوها على زيد بن حصين الطائي ، السابق الذكر ، فأبأها ، ثم كان على رأسهم يوم النهروان ، فقتله أبو أيوب الأنصاري .

فلما قتل علي سنة ٤٠ هـ ، ثم تنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١ هـ ، تحرك الخوارج لقتال معاوية ، ونصبوا عليهم عبد الله بن أبي الحوساء الطائي ، وكانوا ينزلون النخيلة ، بقرب الكوفة .

وفي سنة ٤٢ هـ ، كان اجتماع الخوارج في الكوفة وقد ولى عليها المغيرة بن شعبة على ثلاثة منهم ؛ أحدهم معاذ بن جوين الطائي ، ابن عم زيد بن حصين المقتول في النهروان . ومن الخارجين على زياد معاذ الطائي ، ويقال لأصحابه أصحاب نهر عبد الرحمن<sup>(٣)</sup> .

(١) ابن حزم . (٢) ابن الأثير، ج ٣ صفين . (٣) ابن الأثير في مواضع منفرقة .

من هذا كله يتبين كيف كانت طبيّ العراق منقسمة على نفسها أيضا ، إلا أن أكثرها مع عليّ في حياته ، وهم ذوو ميل واحترام لذكراه بعد موته .

ومننا جماعة خرجت عليه مع الخوارج .

وإنا لنجد أيضا بعض الطائين في قتلّة الحسين من أهل العراق ، ” فإن حكيم بن طفيل الطائنيّ كان أصاب سلب العباس بن عليّ ، ورمى الحسين بسهم في كربلاء ، وكان يقول : تعلق سهمي بسرباله وما ضره “<sup>(١)</sup> .

كما نجد أن منهم بعض الشيعة ، بجمعفر بن عفان ، شاعر الشيعة المكفوف ، كان من جديلة<sup>(٢)</sup> .

رأينا ما كان من طبيّ في الفتوح الإسلامية ، وما تتابع عليها من انقسام ، هو أثر ذلك الانقسام العام ، الذي أصاب الدولة يومئذ ، فاشتركت فيه طبيّ اشتراكا لم تحلّ دونه عصبية قبلية ، ومثلها في كل الفرق التي كانت إذ ذاك ، رجال كانوا يعملون فيها ، وقد امتلأت نفوسهم بما يعملون ، يفارق الابن أباه ، والأخ أخاه ، في سبيل نصرته مذهبه ، فظرفة بن عدى بن حاتم يترك أباه ، خارجا على عليّ ، ليلحق بالخوارج ، ويتبعه أبوه ، فلا يقدر عليه ، فيعود إلى عليّ ؛ وبينما هو في طريقه عند ساباط ، إذ لقيه عبد الله بن وهب الراسبي أمير الخوارج ، فيريد قتله ، فيمنعه طائيان ، هما عمرو ابن مالك النهماني وبشر بن زيد البولاني ، ولولا أن لعدى منزلة خاصة حالت دون قتله لقتلوه ، ذلك أنه صاحب رسول الله ، وأنه ابن حاتم ، وأنه كان سيد طبيّ ، وهو الذي يحبسه زياد في الكوفة يوما ، فلا يوجد ذو شأن فيها إلا ويذهب إلى زياد ، يلومه في حبس صاحب رسول الله ، فيطلقه زياد .

فطبيّ كانت عنصرا من عناصر الأمة الإسلامية ، تحملت كل ما أصابها ، ولقيت كل ما لقيت ، وضعفت فيها روابط العصبية في سبيل الدين ، وأخذ الدين بنفوس أهلها أخذا ، ولا غرابة في ذلك ، فهي قبيلة قد تدينّت قبيل الإسلام ، وداخلتها النصرانية واليهودية ، وفهمت لالتحالف مع غيرها معنى كان يدعوها إلى الانقسام أحيانا على نفسها والاقتيال ، كما كان ذلك في حرب الفساد وخلاف عليّ ومعاوية ، ورأيناها تتمتع عن لقاء أسد في حروب الردّة ، لما كان بينهما من حلف . ولا ريب في أن ذلك عائد إلى سمو تلك الاعتبارات المعنوية ، في نفوس قبيلة لا نشك في أن اتصالها بأمتين عظيمتين كالفرس والروم ، كان له فيها أثر .

(٢) الاشتقاق .

(١) ابن الأثير في الكلام على المغازير بن أبي حيد .

وليس يبدو أن كثيرا من الطائيين كانوا يميلون إلى الأمويين ؛ فإن كثرتهم كانت مع عليّ ، بين أنصار معتدلين ، وقبائل متشيعين . ومن لم يرضه من عليّ شيء كان نائرا مع الخوارج . فلما استقام أمر الدولة الأموية ، وهى الدولة العربية ، لم نسمع فيها عن رجال طبيّ كثيرا ، بل كانوا كما قلت أكثر ميلا إلى عليّ ، وإلى لألمح فى طبيّ فى هذا شيئا من حسن ذلك الحق المقدّس ، الذى كان يحسه المسلمون من الأمم المفتوحة ، التى كان فيها نظام الملك قائما . فإن فى انتصارها لعليّ وآل بيت النبيّ ، معنى دينيا يمتزج بمعنى نظامى ، هو أثر من آثار تكوّن معنى الدولة فى النفوس واستقراره .

لست أذهب إلى أن هذا المعنى كان يقوم فى نفوسهم مقامه من نفوس الفرس والروم المسلمين ، ولكننى أقول إن فيه شيئا من ذلك . لأنهم خالطوهم وعرفوا نظم حياتهم ، وحالف قوم منهم الفرس ، وورثوا المناذرة فى الحيرة ، وحالف قوم منهم الروم ، وورثوا بعد ذلك فى الإسلام ملك الفسانيين ، كما يقول ابن خلدون . وإن حديث عدىّ عن نفسه ، الذى سبق هنا حين كان يقول : "كنت ملكا فى قومي ، أعيش فى فيهم بالمرباع ... الخ" ليدعم هذا الرأى . ويقول زيد الخليل لعمر فى حضرة النبيّ : "أما بنو حية فلو كونا وملوك غيرنا ، ولكل رجل من حية مرباع<sup>(١)</sup>" . كما أن شيئا من الإلمام بسيرة هذه القبيلة بعضها مع بعض فى الجاهلية ، ومع غيرها يوحى بنظام كان يغلب - فى كثير من الأحداث - على طيش الأحلام ، ويحول دون أن تستعر بينها الحرب .

وإن فى حادثة لجوء حاتم إلى الحيرة لئلا يجدد آخر من بنى لام أصهار النعمان ، وما كان على ما هو مذكور فى الأغاني ، ما يدل على رزانة أحلامهم ، ومحاولاتهم القضاء على ما بينهم من خلاف بوسائل التحكيم<sup>(٢)</sup> ، ولقد كان الاحتكام فى هذه الحادثة إلى النعمان .

وفى حادثة أخرى يقصها ابن الأثير ، بين أوس بن حارثة بن لام الطائى ، وكان سيّدا فى قومه مطاعا جوادا ، وبين حاتم بن عبد الله الكريم ، وقول عمرو بن هند لكل منهما أنت أفضل أم الآخر؟ وأجابة كل منهما أن الآخر خير منه . فى هذا مثل آخر من ضبط النفس ، ورزانة الحلم ، يكفى لأن يفهمنا أن كثيرا من تعود النظام ، واستقرار القواعد الخلقية ، كان بين سادة طبيّ إذ ذاك<sup>(٣)</sup> . يمنع هذا بصاحبه غالبا إلى انتظام فى اختيار الحكام ، وهذا سبب ميل أكثر طبيّ إلى عليّ ، وانحرافهم عن بنى أمية . وظلوا كذلك حتى كانت الدعاية للعباسيين ، فاشتركوا فيها .

(١) الأغاني ج ١٦ ص ٤٦ وما بعدها .

(٢) الأغاني ج ١٦ ص ٩٥ وما بعدها .

(٣) ابن الأثير ج ١ ص ٢٨٩

(هـ) طبي والعباسيون : قامت الدعوة العباسية أول الأمر باسم رفع الظلم الواقع على آل النبي، وظل هذا شأنهم في الدعوة لأنفسهم، حتى اصطبغت الدولة العباسية صبغة دينية، إلى جانب المنزلة السياسية، وقام إلى جانبها الموالي وأبناء الأمم المفتوحة، التي اعتادت النظام وتقديس صاحب الملك فيهم. وإنا نرى من طبي في نقباء العباسيين الذين اختيروا لنشر الدعوة، حَقَّطبة بن شَيْبِ الطائي. ومرت حوادث وأهوال، واستقرت الدولة العباسية، فاستخدموا الطائيين في الدفاع عن نفوسهم، وفي مهاجمة الخارجين في داخل البلاد على الدولة.

فكان منهم مُحَمَّد الطوسي، المعروف في بلائه مع المأمون، وهو حفيد حَقَّطبة بن شَيْبِ نقيب العباسيين السابق، وإخوته الحسن وعبدالله وشَيْبِ، وآبن عمه كان عبد الحميد بن رَبِيعِ بن خالد ابن معدان، وآبناه أصرم ومُحَمَّد أبو غانم آبناه عبد الحميد، ومهدى بن أصرم، ومحمد بن مُحَمَّد، وأبو نصر ومحمد إخوته، الذين مدحهم حبيب ورتاهم بالقصائد المشهورة. وأولاء جميعا من بني نَبْهان بن عمرو بن الغوث بن طبي؛ ومنهم أبو سعيد محمد بن يوسف النخري صاحب بابك.

(و) طبي في الحركة الفكرية : يعد آبن دريد في "الاشتقاق" تسعة شعراء من جديلة، ونحسا وعشرين من الغوث، وفي الحماسة غير هؤلاء من الطائيين شعراء آخرون، لا نعرف أكانوا استكثروا من الشعر أم لم يستكثروا، فإن لأحدهم المقطوعة القصيرة، والمقطوعات الطوال شيئا، وشعرهم فيه حلاوة وسهولة، ويمتاز بالطبع، حتى ليكاد يستحيل كلاما، إلا أنه يأخذ بجماع القلوب. فأسمع أحدهم سنان بن الفحل يقول، حين اختصم بنو أم الكهف من جريم طبي، مع حى من فزارة على ماء :

وقالوا قد جُنِدتُ فقلتُ كَلَّا	وَرَبِّي ما جَننتُ وما انْتَشَيْتُ
ولكني ظَلَمْتُ فكدتُ أربكي	مِن الظلمِ المَبِينِ أوبَكَيْتُ
فإن الماءَ ماء أبي وجَدِّي	وَبِرِّي ذو حَفرتُ وذو طَوَيْتُ
وقبلَكَ رَبِّ خَصِيمٌ قد تَمالَوا	على فَمَا هَلَمْتُ ولا دَعَوْتُ
ولكني نَصَبْتُ لهم جَبِينِي	وآلةَ فَارِسٍ حتى قَرَيْتُ

وأسمع آخر، هو جابر بن حريش الطائي :

ولقد أَرَانَا يَا سُمِّيَّ بِجَائِلٍ      نَزَعِيَ الْقَرِيَّ فَكَامِسَا فَالْأَصْفَرَا  
فَالْحَزْرَعِ بَيْنَ ضُبَاعَةٍ فُرْصَانَةٍ      فَعُوَارِيضِ حُسُوِّ الْإِسَابِيْسِ مُقْفَرَا  
لَا أَرْضَ أَكْثَرُ مِنْكَ بَيْضَ نَعَامَةٍ      وَمَذَانِيَا تَنْدَى وَرَوْضَا أَخْضَرَا

ولعبيد بن ماوية الطائي :

أَلَا حَيَّ لَيْلِي وَأَطْلَاهَا      وَرَمَلَةٌ رِيًّا وَأَجْبَاهَا  
وَأَنْعِمُ بِمَا أَرْسَلْتَ بِأَلْهَا      وَنَالَ التَّحِيَةَ مَنْ نَالَهَا  
فَلَيْلِي لَسَدُو مِرَّةٍ مِرَّةٍ      إِذَا رَكِبْتَ حَالَةً حَالَهَا

ويقول الحرث بن زيد الخليل، وكان قتل رجلا مسلما أرسله عمر يستقرئ أهل البادية، لأنه استقرأ ابن عم لحرث هذا، فلم يعرف، فضربه فمات. فقتل حرث الرجل المسلم وجماعة من أصحابه، وهرب إلى الشام، وقال هذه الأبيات يخاطب بنت القتيل الطائي :

أَلَا بَكْرَ النَّاعِي بَاوِسَ بْنَ خَالِدٍ      أَحْيِ الشَّتْوَةَ الْغَبْرَاءِ وَالزَّمِينَ الْمُحَلِّيلِ  
فَإِنِّي يَقْتُلُوا بِالْقَدْرِ أَوْسَا فَإِنِّي      تَرَكْتُ أَبَا سَفِيَانَ مُلْتَرِمِ الرَّحَلِ  
فَلَا تَجْزِعِي يَا أُمَّ أَوْسٍ فَإِنَّهُ      تُصِيبُ الْمَنِيَا كُلَّ حَافٍ وَذِي نَعْلِ  
قَتَلْنَا بِقَتْلَانَا مِنَ الْقَوْمِ عَصَبَةَ      كِرَامَا وَلَمْ نَأْكُلْ بِهِمْ حَشْفَ النَّخْلِ  
وَلَوْلَا الْأَسَى مَا عَشْتُ فِي النَّاسِ سَاعَةً      وَلَكِنِّي إِذَا مَا شَتُّتُ جَاوِبِي مِثْلِي

وقد ظل الشعر فيهم هو طريق التفكير، شأن العرب قبل الإسلام. ومن شعرائهم المعروفين في الجاهلية حاتم بن عبد الله الطائي، وله ديوان مطبوع، ومنهم أيضا زيد الخليل، ومنهم أبو زبيد الشاعر النصراني، ويقول وستيفيلد في هامش الاشتقاق لابن دريد، "إنه أسلم". وكان عثمان بن عفان يحب الجلوس إليه. ومنهم في الإسلام الطيرقاح الأكبر بن عدى، ويقول عنه ابن حزم إنه كان خارجيا صُفْرِيَا ومنهم الطيرقاح الأصغر بن حكيم، وديوانه مطبوع أيضا، وكان خارجيا، ومنهم حبيب بن أوس. ثم جاء الإسلام وانتشرت طبي في البلاد المفتوحة، واستقروا بها، فشاركوا في الحركة العملية، فمنهم القضاة في الإسلام. فعمربن الخطاب يولى حابس بن سعد قضاء حمص، والمختار بن أبي عبيد الثقفي المتشيع المعروف، يولى على قضاء الكوفة عبد الله بن مالك الطائي.

ومنهم المحدثون كقبيصة بن المهلب، وعروة بن مضر بن أوس، له صحبة ورواية، ومنهم عالم عظيم الذكر بالأخبار والسير، هو الهيثم بن عدى<sup>(٣)</sup>.

ومنهم كان أبو مالك أبان بن الصمصامة بن الطرميح الأكبر، راوية الأشعار واللغة، ساكنا بالقيروان بإفريقية<sup>(٤)</sup>.

ومنهم في الناحية الفنية مالك بن أبي السمح، وأسمه جابر بن ثعلبة الطائي، أحد بني ثعل . وكان مغنيا، أخذ الغناء عن جميلة ومعبد، وعمر حتى أدرك الدولة العباسية، وكان منقطعا إلى بني سليمان بن علي، ومات في خلافة المنصور. وكان مالك رائع الغناء، واسع الأفق، يتلقت ألسانه من كل مكان، وأوجد طريقة جديدة في الغناء غير طريقة أستاذه<sup>(٥)</sup>.

### ١٠ - نسبة أبي تمام في طي

إلى هذه القبيلة الوثنية النصرانية اليهودية المسلمة، ذات الاتصال الوثيق بالفرس والروم، في الجاهلية والإسلام، والتي كان منها أولئك الذين ذكرت من الشعراء والعلماء والمحدثين ورواة الأخبار وأصحاب الفن - إلى هذه القبيلة ينسب كل المؤرخين أبا تمام.

فالصولي في كتابه "أخبار أبي تمام" يقول: هو حبيب بن أوس الطائي صليبة. ويذكر صاحب الأغاني<sup>(٦)</sup> أنه من نفس طي صليبة. وأبن حزم الظاهري في جمهرته يقول عنه إنه من ولد الحارث بن طي، والحارث بن طي على ما يذكر، كان يقيم في مهرة بن حيدان، وكانوا أخواله، نزل فيهم إذ رحل أبوه وأخواه. والرحلة التي يتحدث عنها هي رحلتهم إلى أجا وسلمي.

ومهرة بن حيدان بطن من قضاة كبير، ينقسم إلى قبائل<sup>(٧)</sup>. أما كتب الأدب فجمعة على أنه طائي، حتى إنهم ليقولون أحيانا الطائي ويسكتون، فيفهم أنهم يقصدون أبا تمام. وينقل الجاحظ في كتابه المحاسن والأضداد عن الطائي. ويقول عنه المبرد الطائي، وكذلك ابن عبد ربه وابن رشيق والسمعاني وصاحب تاريخ قزوين، ويلقبه الطبري - وابن الأثير بالطائي، وكل ما يحيط بأبي تمام لا يكاد يدع مجالاً للشك في أنه من طي. إلا أن هناك أمرين تقف عندهما شيئا:

أولهما: ما نقله الصولي في كتابه<sup>(٨)</sup>، قال: "وقال قوم هو حبيب بن تدوس النصراني، فغير أوسا".

(١) جمهرة الأنساب . (٢) نفسه . (٣) الاشتقاق ص ٢٣٣ (٤) جمهرة الأنساب .  
 (٥) الأغاني ج ٤ ص ١٦٦ (٦) ج ١٥ ص ٩٦ طبعة السعادة . (٧) اشتقاق ابن دريد ص ٣٢٢  
 (٨) أخبار أبي تمام، ورقة ١٢٠

وهذه العبارة ما كانت تفيد شيئاً . فإن نصرانية رجل من طبي لا تستغرب لو لم تفتقرن إليها عبارة أخرى ، مذكورة في كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، في ترجمته أبا تمام . والعبارة هي : ” وذكر أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدى ، في كتاب الموازنة بين الطائيين ما صورته : والذي عند أكثر الناس في نسب أبي تمام ، أن أباه كان نصرانياً من أهل جاسم ، قرية من قرى دمشق ، يقال له تدوس العطار ، فجعلوه أوساً . وقد لفتت له نسبة إلى طبي ، وليس فيمن ذكر فيهما من الآباء من اسمه مسعود ، وهذا باطل ممن عمله ، ولو كان نسبه صحيحاً لما جاز أن يلحق طيباً بعشرة آباء . قلت ( ابن خلكان ) : وذكر الأمدى هذا في قول أبي تمام :

إِنْ كَانَ مَسْعُودٌ سَقَى أَطْلَاهُمْ فَيَضُّ الشُّثُونَ فَلَسْتُ مِنْ مَسْعُودٍ

وقد سقط في النسب بين قيس وذفافة ستة آباء . وقول أبي تمام ” فلست من مسعود ” لا يدل

على أن مسعوداً من آباءه . بل هذا كما يقال : ما أنا من فلان ، ولا فلان مني .

وقبل أن نناقش هذه العبارة الأخيرة ، يجب أن نذكر عبارة الصولى السابقة ، وكيف أن نصرانية أبيه لا تتعارض مع طائيته ، فقد رأينا من قبل كيف كانت النصرانية في طبي ، وكيف بقيت فيهم بعد الإسلام . ويجب أن نذكر إلى هذا أيضاً ، أن الصولى لا يؤمن بهذه القضية ، لأنه ذكرها في معرض من معارض الشك . ذكرها في كلام من عاب أبا تمام ، ويجب أن نذكر أيضاً أنه لم يُبدِ شكاً في طائية أبي تمام ، بل قطع بها ، فقال : هو من طبي صليبة .

فعبارة الصولى لا تقدم ولا تؤخر في موضوعنا . ولكن عبارة الأمدى كما ينقلها ابن خلكان ، هي التي تشير صراحة فعلية حول نسب أبي تمام ، إذ العبارة كما في ابن خلكان صريحة في أن أناساً كانوا يتهمون أبا تمام في نسبه إلى طبي .

والذى أريد أن أوجه النظر إليه ، هو أن العبارة تنقسم إلى قسمين : قسم من كلام الأمدى ، ينتهى عند قوله : ” بعشرة آباء ” ، وقسم من كلام ابن خلكان ، وينتدئ عند قوله : ” قلت : وذكر الأمدى ... الخ ” . وينتهى عند : ” ما أنا من فلان ولا فلان مني ” .

وكلام الأمدى قضية تستند إلى دليلين :

أما القضية فهى : ” والذي عند أكثر الناس في نسب أبي تمام ... وقد لفتت له نسبة

إلى طبي ” وأما الدليلان فأولهما أن نسبه ، ولم يذكره ، يلحق فيه طيباً بعشرة آباء ، وهذا غير جائز .

وثانيهما : أنه يقول : ” فلست من مسعود ” . وليس في نسبه أب اسمه مسعود .

فبرد عليه ابن خلكان بما يهدم هذين الدليلين، بعد أن يشير إلى مكان العبارة من كتاب الموازنة، فيقول له : ١ - أما أن آباءه عشرة فذلك ليس بصحيح ، إذ سقط من هذه النسبة ستة آباء ، بين قيس وذفافة، وهي إشارة ضمنية إلى أبوين من آباء أبي تمام، قيس وذفافة، فيجب أن نذكرها، وفيها أيضا موافقة من ابن خلكان على أن آباء أبي تمام يجب أن يكونوا ستة عشر، ليصل إلى طبي .

٢ - أن الآمدى لم يصب فهم عبارة أبي تمام : " فلست من مسعود " .

فابن خلكان يقول له مامعناه : إن عبارة أبي تمام لاتفيد ذلك، وأسلوب العرب لا يحتم أن يكون مسعود أبا من آباء حبيب .

ومعنى ذلك أن الآمدى لم يعرف هذا الوجه من وجوه تأويل العبارة .



وقد كان الجدال يستقيم على هذا وينتهي بالارتياح إلى ما قال ابن خلكان، لولا ما هنالك من أشياء : (أولها) أن ابن خلكان الذي يتخذ دليله على صحة نسب أبي تمام أستيفاء هذا النسب العدد الذي أوجبه الآمدى في عبارته، وهو ستة عشر أبا لأبي تمام . ابن خلكان حين يذكر نسب أبي تمام لا يعدد بينه وبين طبي إلا ثلاثة عشر أبا . فالنسبة عنده هكذا : " أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج بن يحيى بن مروان بن مُر بن سعد بن كاهل بن عمرو بن عدى بن عمرو ابن الغوث بن طبي " .

(وثانيها) أنه يذكر في تفصيل حجته السابقة سقوط ستة آباء بين قيس وذفافة ، فإذا نظرت إلى النسبة على ما هي في كتابه لم تجد ذفافة هذا .

(وثالثها) أن ابن خلكان يقول في كلامه على نسب أبي تمام : " وقد ساق الخطيب أبو بكر في تاريخ بغداد نسبه، وفيه تغيير يسير " .

أما هذا التغيير الذي يصفه ابن خلكان باليسير، فهو على ما سيأتي، مع ترك ما أتفقا فيه في أول النسبة وآخرها . مقابلا كل اسم بما عند الآخر .

عند ابن خلكان : ابن يحيى بن مروان بن مر بن سعد ... الخ

عند الخطيب : ابن يحيى بن مزينة بن مهم بن ملحان بن مروان بن ذفافة بن مُر بن سعد ، ثم تستقيم النسبتان بعد ذلك على صورة واحدة حتى طبي ، ولا إخالك تظن أن هذا الفرق هو

التغير اليسير الذي أراده ابن خلكان . والفرق إذا بلغ ما بين الثمانية والأربعة لم يكن فرقا يسيرا ،  
فبين يحيى ومروان عند ابن خلكان سقط ثلاثة آباء ، وبين مروان ومُر سقط ذفافة ، وهو الأسم  
الذي يفهم من كلام ابن خلكان أنه ذكره في نسب أبي تمام .

ونستطيع أن نخرج من هذه الآن بان أسماء من أسماء آباء أبي تمام كما كتبها ابن خلكان قد  
سقطت في النقل عنه . وهو أمر يجب أن ينبهنا إلى التريث في تقويم ما في الكتاب كأثر حقيقى كتبه  
ابن خلكان .

فإذا أضفت إليه ما يأتى ، أحسست أن الباحث أكثر حاجة إلى التريث ، وإبصار موقع قدميه .  
قد رأينا فى كلام ابن خلكان ما يفهم منه أن الآمدي كان يرى أن مسعودا أحد آباء أبي تمام ،  
وأنه ذكر ذلك فى الكلام على بيته :

\* إن كان مسعودٌ سقى أطلالم \*  
(١)

فإذا جئت إلى الآمدي وجدت ما يأتى :

قال أبو تمام :

إن كان مسعودٌ سقى أطلالم      فيض الشئون فلست من مسعود  
ظعنوا فكان بكأى حولا بعدهم      ثم ارعويتُ وذلك حكم لبيد  
أجدر بجمرة لوعة إطفائها      بالدمع أن تزداد طول وقود

قوله : إن كان مسعود ... يعنى مسعودا أخا ذى الرمة ، ولا يعرف له بيت واحد بكى فيه على  
الديار . وهذا من معانى أبي تمام الغامضة ، التى يسأل عنها .

وما زلت أرى الناس قديما يخبطون فيه ؛ وإنما ذكر مسعودا لأنه كان ينهى أخاه ذا الرمة  
عن البكاء على الديار ، وذلك قول ذى الرمة :

عشية مسعودٌ يقولُ وقد جرى      على لحيتي من واكفِ الدمع فاطرُ  
أفي الدار تبكي إذ بكيتُ صبايةً      وأنت أمرؤ قد حملتكَ المعاشيرُ

فأراد أبو تمام : إن كان مسعود الذى أنكر على ذى الرمة البكاء ونهاه عنه ، قد رأى أن البكاء  
أحسن بعد أن كان عنده غير حسن ، فلست منه ؛ وذلك كقول القائل : إن كان حاتم قد شغ فلست  
منه ، أى : إن كان بعد كرمه وجوده قد رأى أن البخل حسن ، فلست مقتديا به ، وكان هذا عند

أبي تمام أبلغ من أن يقول : إن كان غيلان سقى أطلالهم ، يعني ذا الرمة ، فليست منه . وهذا أيضا من استقصاء أبي تمام ، ومبالغته في المعاني ، التي يخرجها إلى التعمية والانفلاق . وقوله : « وذاك حكم لييد » يريد قول لييد :

إلى الحويل ثم أسم السلام عليك  
ومن بيك حولاً كاملاً فقد اعتذر  
وقوله :

أجدر بجمرة لوعة إطفائها  
بالدمع أنت تزداد طول وقود

فظ بين ، لأنه أتى فيه بما يخالف مذاهب أهل الجاهلية والإسلام والأئم كلها ... » وهكذا يمضي ثم ينتقل إلى غيره . ولم يقل شيئاً في كل كتابه عن مسعود غير هذا . فكان كتاب ابن خلكان على حاله التي بين أيدينا الآن ، قد ظلم الآمدي ، ونسب إليه ما ليس من قوله . ولو لم يكن هذا التناقض الصريح بين ما قاله الآمدي ، الذي هو أول من بين الغموض في هذا البيت كما يبدو من قوله ، وبين ما قاله ابن خلكان ، ولو لم يكن الاضطراب الذي سبقه ، لقلت : عبارة كتبها الآمدي ، ثم سقطت في نقل كتابه إلينا .

والذي أستطيع أن أفهمه من هذا هو أن كتاب ابن خلكان لم ينقل إلينا نقلاً أميناً ، وأن خطأ قد وقع في هذا الموضوع نفسه ، أدى إلى اختلاط كلام الآمدي بكلام قوم آخرين ، يتهمون أبا تمام في نسبه .

وعندي أن ما كان قاله ابن خلكان في كتابه ، إنما كان على نحو هذا : وهو أن جماعة من الناس اتهموا أبا تمام بأنه ليس طائياً ، واستدلوا على ذلك بأن آباءه عشرة فقط ، مع أنه يلزمه ستة عشر لكي يصل إلى طبي ، وأنه كان له أب يدعى مسعوداً ، ليس مذكوراً في نسبه ، مع أنه مذكور في شعره . ثم رد ابن خلكان على هذين الدليلين بما سمعناه يقوله ، مستندا في ذلك إلى تفسير الآمدي السابق الذكر للبيت ، وجاء ناقل الكتاب نخلط فيه لأمر ما ، حتى صار إلى صورته التي هي بين أيدينا . ونخرج من ذلك كله بأن الآمدي لم يتهم أبا تمام ، كما لم يتهمه الصولي ، وأن ابن خلكان دافع عنه ، وحطم حجج خصومه .

كما أنني لم أسمع من خصومه من يهجوهم ويتهمهم بهذه التهمة ، إلا مخلد بن بكار الموصل ، وقد كان مخلد بالموصل هجا أبا تمام آخر أيامه ، وإبان عزه واشتهاره ، وكأنه كان يريد بهجائه الشهرة ، فلم يعبا به أبو تمام ، ولقد كان احتقار أبي تمام له ثقيلاً ، أثار ضغنه ، حتى هجاه بعد موته .

قيل لأبي تمام : قد هجاك مخلد فلو هجوته ؟ قال : الهجاء يرفع منه . قيل أليس هو شاعرا : قال : لو كان شاعرا ما كان من الموصل . يعني أن الموصل لم يخرج شاعرا ...<sup>(١)</sup>

وأول شعر هجا به مخلد أبا تمام ، هو كما يروي الصولي عن غلام مخلد :

أنتِ عندي عربيُّ الـ	مأصل ما فيك كلام
عربيُّ عربيُّ	أجئي ما تُرام
شعر نخذيك وساقيد	يك نخرامي وثمام
وضلوع الشلومين صد	رك نبع وبشام
وقذى عينيك صمغ	ونواصيك نغام
لو تحزكت كذا لآذ	يجفأت منك أنعام
وظباء مخصبات	ويرابيع عظام
أنا ما ذنبي إن خا	لفني فيك الأنام
وأنت منكِ سجايا	نبطيات لئام
وقفا يحاف أن ما	عرقفت فيك الكرام
نم قالوا جاسمى	من نبي الأنباط خام
كذبوا ما أنت إلا	عربي لا أنصام
بينه ما بين سلمى	وحواليه سلام <sup>(٢)</sup>
وله من إرث آباء	فيسى وسهام
ونخيل باسقات	قد دنا منها صرام <sup>(٣)</sup>
أنت عندي عربي	عربي والسلام <sup>(٤)</sup>

وهجاء مخلد فيه يجري في هذه السبيل ، ذكره الصولي في كتابه "أخبار أبي تمام"<sup>(٤)</sup> .

(١) الصولي : أخبار أبي تمام ، مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية — الورقة ١١٤ (٢) السلة كفرحة : الحجارة .

جمها سلام كتاب (المحيط) . (٣) أصرم النخل : حان له أن يصرم ؛ وصرامه ، ويكسر فيقال أيضا صرامه :

أبو من إدراكه (المحيط) . (٤) الورقات : (١١٤ و ١١٥ و ١١٦) .

ولكن هجاء خصم كهذا لا يصح أن يؤخذ مأخذ الحجمة على إجماع المؤرخين . فلقد كان خصومه يركبون فيه أشنع ما يركب . يقول الصولي<sup>(١)</sup> : ”وقد رأيت أعزك الله بعض هؤلاء الجهلاء يصحّف أيضا على أبي تمام، ثم يعيب عليه ما لم يقله أبو تمام قط ...“ . وينقل<sup>(٢)</sup> عن علي بن الجهم أنه لعن دعبلا ... وقال : كان يكذب على أبي تمام، ويضع عليه الأخبار .

مفصوم أبي تمام كانوا يعمدون إلى كل ما يمكن به النيل منه، فيفعلونه؛ ويكفي أن تعرف أنه كسف نحسائة شاعر في أيامه، فكانوا لا ينالون معه درهما حتى مات، فتقاسموا جميعا ما كان يأخذه، حتى تقدر حسد هؤلاء له واضطغانهم عليه، فليس غريبا أن نجدته متهما بالكفر عند قوم، وضعف العقيدة عند آخرين، وعدم العربية عند غيرهم، إلى غير ذلك من ضروب الاتهام والتجنى .

وأما أن أباه كان نمارا أو عطارا، فذلك إن صح ما لم يقل أحد إنه كان صناعة من الصناعات المقصورة على جنس من الناس دون جنس . وأما أن أباه كان أوسا أو تدوسا، وأما أن اسمه يشبهه (Theodose)<sup>(٣)</sup> فيكون اسما يونانيا عّرب، أو هو عربي اشتق من داس يدوس، أو ارتجل كما ارتجل غيره، فذلك لا يبلغ بقضية أبي تمام شيئا، بل ربما كان مما يستأنس به لتصحيح نسبه في طبي؛ إن كان الاسم يونانيا . فقد بينت قبالا أن طينا كانت وثيقة الصلة بالروم في الشام، وكيف كانت تجاورهم، وكيف كانت تدين بدينهم جماعات منها، حتى بعد الإسلام، فلا غرابة في أن يأخذوا أسماء من أسمائهم، فيعربوها .

وإنك لتجد في صدر كتاب الاشتقاق لابن دريد، أن الذي حداه ”على وضع كتابه، أن قوما يطعنون على اللسان العربي، وينسبون أهله إلى التسمية بما لا أصل له في لغتهم، وإلى ادعاء ما لم يقع عليه اصطلاح من أوليتهم“ . ثم يحاول في كتابه إرجاع كل اسم إلى أصل عربي، إشباعا لعصبية عربية . وهو يريد أن ينفي عن الخليل بن أحمد رواية أنه سأل أبا الدقيش ما الدقيش؟ فقال : لا أدري، إنما هي أسماء نسمعها ولا نعرف معانيها .

وإن عصبية أبي تمام لطبي تترى واضحة في كل شيء . في تحوّه، تراه ملما بكل ما نعرف من لهجات طبي، كما ذكرت في مكان آخر، وفي اختياراته . ففي الحماسة الكبرى تراه يختار لما يزيد على خمسين طائيا . وفي الوحشيات لا تعدّ صفحات قلائل حتى تعثر على شعر لطائي، وفي ممدوحيه .

(١) المصدر السابق، الورقة ٢٨ (٢) المصدر نفسه الورقة ٢٩ (٣) صاحب هذا الرأي هو كاتب مادة

أبي تمام في دائرة المعارف الإسلامية .

وخلاصة القول عندي أن أبا تمام عربي طائي، وأن هذه التهمة في نسبه إنما أتته كما قلت عن طريق خصومه، الذين حاولوا النيل منه في كل شيء، حتى فيما لا يجوز فيه التهمة من نفسه وشعره المسائل بين أيدينا.

بل إنك لترى بعض هؤلاء الخصوم يستعينون عليه، حين تعوزهم الوسائل، بنسبته في طبي، ففي الموازنة في ذلك النقاش البديع الذي صوره لنا الأمدى تصويرا دقيقا لخصمين يتجادلان في قيمة شعر أبي تمام وشعر البحترى، والذي است أتردد كثيرا في القول بأنه تصوير من عنده لتلك الخصومة، التي كانت تدور في عصره حول هذين الشاعرين، إلا أنها تستند على أصول حقيقية؛ في ذلك النقاش: إذا قال المنتصر لأبي تمام إن البحترى قد أقر في الشعر الذي رثى به أبا تمام بتفوقه، وفضله على غيره؛ رد عليه صاحب البحترى بقوله: "ولم لا يفعل البحترى ذلك وقد كان هو وأبو تمام بعد اجتماعهما وتفارقهما متصافيين، يجمعهما النسب والطلب والمكسب، ولم يك في زمانهما شاعر مشهور يقدر على الملوك، ويحتدى بالشعر، وينسب إلى طبي سواهما".

فهذا خصمه يعترف له بأنه كان من طبي، ولا يظعن عليه في نسبه.

كما أن لأبي تمام شعرا كثيرا ينتسب فيه إلى طبي، لا يجرؤ على قوله إلا صادق النسب في قومه، ولست أحصيه هنا، ولكنني أذكر أمثلة منه، فهي كثيرة في شعره. يقول حين يمدح يمينا:

وإني ومدحي مَدْحُ أَبْنَةِ مَدْحٍ      لكالمُفْعِمِ الخَوْضِ الذي أنا وارِدُهُ  
وأَكْبِسُ بِمُجْدٍ عاد فيه نِوَالُهُ      وشاعر قومٍ عُدْنَ فيه قِصائِدُهُ

ويستد به الضيق، ويلج عليه الفقر، وكثيرا ما كان يلج عليه لسرفه، فيهتف بمحمد بن يوسف الطائي هذا الهتاف:

تَقَرَّبْتُ بِالقُرْبَى إِلَيْكَ وَمَعِصِمٍ      من العَدْلِ مِنْ دُونِ القَصِيدِ المقْصِدِ

ويقول وهو في مصر لما ضاق في وجهه الرزق، وأنحطم أمله، بعد أبيات باكية:  
ولو أننى أعطيت بأسى نصيبه      إذن لأخذت الحزم من مأخذ سهيل  
وكان ورأى من صريمة طبيء      ومعن ووهب عن أمامي ما يسلي  
فلم يك ما جرعت قومي من الأسى      ولم يك ما جرعت نفسي من الشكلي

وفي هذه المواقف جميعا تنبو النفس عن الادعاء والكذب ، إما خوف الزجر كما هو في الأول والثاني ، وإما لأن هذا الادعاء في فترة من فترات الحزن التي تصفو فيها النفس ، شيء أُدعى إلى سخيرية صاحبه من نفسه .

ولكني بعد هذا كله لا أرتاب في أن في أبي تمام عنصرا أجنبيا ، إلا أنه في الثقافة وليس في الدم . وإذا كان أبو تمام قد افتتح عنصرا في الشعر العربي ، وطفر به طفرة رائعة ، فما ذلك بغريب على عربي . ولقد طغت علينا في عنصرنا هذا موجة ذات أصل عند ابن خلدون ، تلك هي محاولة إرجاع حركة القيام بكل عمل ضخم في مدينة العرب ، إلى أعجمي من الأمم التي لا يستهم ، وعاشت تحت سلطانهم . ولست أومن بهذه النظرية ، فإن نظرة عامة تلتقي على تاريخ العرب ، ترىنا أن الأجنبي كان يبدأ بأول خطوة ، فلا يلبث العربي أن يتعلم منه ، ثم يخطو على أثره ، ثم يسبقه ، ويسوده ، فإذا به المجتهد في فنه ، البالغ ما يطمح إليه الطامحون . ولقد أثبتت العرب أنهم تلاميذ نجباء ، إذا علموا عملوا في جرأة لا يحلم بها الدخيل عليهم ؛ وأنهم إنما كانوا في حاجة إلى أسانذة ؛ وإن العرب إن لم يكن كل العلماء الذين كتبوا في لغتهم منهم ، فقد كان رؤوس هؤلاء العلماء منهم .

فأبو النخعي والعروض الخليل بن أحمد ؛ وسيد الفقهاء الشافعي ، ولات الشعر ومنااته وعزاه ، كما يقول ابن الأثير في المثل السائر : هم أبو تمام الطائي ، وأبو عبادة البحرى ، والمتنبي ؛ ومن العرب بعد ذلك أبو العلاء المعري .

ولقد عاصر الكندي الفيلسوف أبا تمام ، واجتمع معه في مجلس أحمد بن المعتصم .

إن العرب لظروف سياسية طارئة قد شغل معظمهم عن الاشتغال بالعلوم ؛ أما من اشتغل منهم بعلم أو فن ، فقد برز فيه . وليس لنا أن نطالب أمة تجمع شتات الأجناس من الخلق أن يكون علماءها جميعا عربا ، لأن لغتها العربية ، ولأن الدين أرسل به عربي . فإن معظم هذه الأمة لم تكن عربا خالصة . فإذا تحققت بهذا طبيعة الأشياء ، فكان أغلب علماء أمة أغلبها من الأعاجم عجماء ، لم يكن معناه آتاهم العرب بالعلم العقلي ، وعدم قبول عقلهم للبحث العلمي . وليس لنا بعد هذا أن ننفي عنهم العلم ، حتى ليدعونا ذلك إلى التشكك في نسب العربي النافع ، حين تعوزنا الحجة لتطبيق نظرية أصلها الخطأ ، ومثيرها العصبية .

١١ - أشهر مشاهير طي و بطونها حتى زمن النبي  
(عن كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لدى برسفال)

طي - جلهمة

